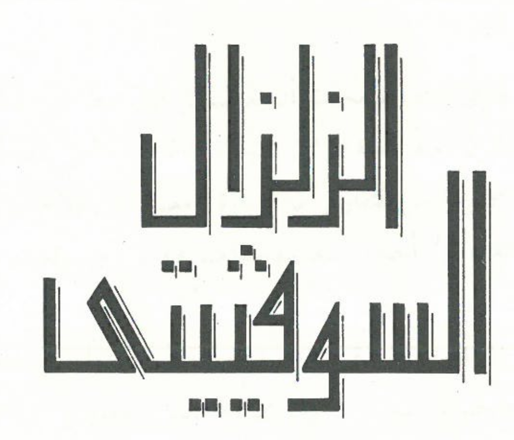
محمد حسنين هيكل



دار الشروق

الطبعة الأولى
يناير ١٩٩٠

الطبعة الثانية
يناير ١٩٩٠

الطبعة الثالثة
يوليو ١٩٩٠

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
برقيا : شروق ـ تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق ـ تلكس : SHOROK 20175 LE

مقدّمة

من حق كل قارئ لهذه الصفحات أن يعرف من أول سطر فيها ، أن ما بين يديه الآن هو أقرب إلى أن يكون « ملفًا » منه إلى أن يكون « كتابًا » ، بالمعنى المصطلح عليه والمفهوم . فهو فى الأساس مجموعة من التقارير عن زيارة « معينة » إلى الاتحاد السوفيتى ، فى لحظة « معينة » من حياته ، فى أجواء « معينة » سادت فيه ، وقد وقعت جميعًا أثناء عملية تاريخية هائلة ، تداعت وتدافعت فيها تغييرات بدأت « زلزالاً » داخل حدوده ثم تدفقت « طوفانًا » كاسحًا إلى أوروبا الشرقية ـ إلى أوروبا الغربية ـ إلى بقية العالم ـ يجرف أمامه عقائد سادت ، وأوضاع رسخت ، وخرائط تحددت ، وموازين قوة كان الظن ـ طوال نصف قرن تقريبًا ـ أنها فى ثقل الجبال !.

وفى تلك الفترة ـ نصف القرن الأخير ـ بدا أن الضوابط الحاكمة الممسكة بالحالة العالمية السائدة ، كانت كما يلى :

أولاً : اتفاق « يالطا » (المنتجع الروسى المطل على البحر الأسود) حيث اجتمع الرئيس الأمريكى « فرانكلين روزفلت » والزعيم السوفيتى « جوزيف ستالين » ـ ومعهما رئيس الوزراء البريطانى « ونستون تشرشل » ـ واتفقوا وقتها على تقسيم النفوذ فى عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية . والواقع أن الاتفاق كان بين العملاقين ـ الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وحدهما ـ أما بريطانيا فقد كانت مجرد شاهد ساخط يرى الكبار ينفردون بمغانم النصر على ألمانيا النازية ولا يجد لنفسه حصة فى التقسيم ، بل يرى امبراطوريته العتيقة نفسها تركة مستباحة يتنازعها الأقوياء .

وفى « يالطا » حصل الاتحاد السوفيتى على نفوذ كامل فى شرق أوروبا ، وحصلت

الولايات المتحدة على نفوذ كامل فى غرب أوروبا . وكانت عملية اقتسام النفوذ غريبة من نوعها فى التاريخ إلى درجة أن بعض الدول وجدت نفسها موزعة على الطرفين طبقًا لنسب مئوية ، وأشهر مثل لذلك «يوجوسلافيا» حيث وقع الاتفاق على أن يكون النفوذ فيها للاتحاد السوفيتى بنسبة ٧٥٪ وللولايات المتحدة بنسبة ٢٥٪ – أما «اليونان» فقد كان اقتسام النفوذ فيها مناصفة : ٥٠٪ للولايات المتحدة و٥٠٪ للاتحاد السوفيتى ، وهكذا ... وهكذا .

وبالفعل فإنه فى أعقاب الحرب سادت قواعد هذا العقد الغريب ، وإن كانت حركة التحرر الوطنى وحركة عدم الانحياز بعدها استطاعت تحدى هذه القواعد على نحو أو آخر فى حقبة الخمسينيات والستينيات !.

ثانيًا : اتفاق «بوتسدام» (المدينة الألمانية الجميلة) التى التقى فيها قادة الحلفاء المنتصرين على النازية – لكى يقرروا مستقبل ألمانيا المهزومة ، وكان قرارهم هو تقسيمها إلى غرب وشرق . غرب تتولاه الولايات المتحدة الأمريكية ، وشرق يتولاه الاتحاد السوفيتى ، مع عزم الاثنين معًا على عدم السماح بعودة ألمانيا موحدة باعتقاد أن توحيدها يضع فى وسط أوروبا – قلب الأمن الأوروبى – عنصرًا قادرًا فى يوم من الأيام على تحدى الموازين المطلوبة لسلام ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وكان ذلك هو المنطق الذى صاغه الأديب الفرنسى الأشهر «فرانسوا مورياك» بعبارته التى سارت مثلاً فيما بعد ، بقوله : «إننى أحب ألمانيا إلى درجة أننى أريد أن أرى اثنتين منها – وثلاثة إذا كان ذلك ممكنًا» !.

وفى اتفاق «بوتسدام» ، وقد جرى بعد «يالطا» بسنة واحدة ، لم يكن «روزفلت» حاضرًا لأن الموت عاجله قبل النصر ، وهكذا حل محله نائبه وخلفه فى الرئاسة الأمريكية – «هارى ترومان» . وأما «تشرشل» فقد حضر الجلسة الأولى فى «بوتسدام» واختفى لأن نتائج الانتخابات العامة البريطانية وقتها أزاحته عن رئاسة الوزارة البريطانية وحل محله منافسه رئيس حزب العمال «كليمنت آتلى» . أما «ستالين» فقد كان الوحيد الباقى من ثلاثى «يالطا» وهكذا شارك فى اقتسام النفوذ فى أوروبا وفى تقسيم ألمانيا .

ثالثًا : اتفاقيات الأحلاف التى أقامت «حلف الأطلنطى» – درعًا للغرب ، ثم «حلف وارسو» ردًا عليه – درعًا للشرق . وبضرورة هذين الاتفاقين فقد عاد حلفاء الأمس وأطراف عمليات «الاقتسام» و «التقسيم» إلى خصامها المذهبى الأصلى بين

رأسمالية وشيوعية ، وكانت المواجهة الحازمة لكل واحد منهما إزاء الآخر هى حلفه العسكرى تقوم دعائمه على قوته ويحيط به تجمع أنصاره أو أصدقائه أو أتباعه ، استعدادًا للصدام إذا وصل التناقض بين الخصمين إلى ما لا تستطيع الدبلوماسية أن تفصل فيه أو تحل عقدته .

وبظهور وانتشار الأسلحة النووية أدرك الخصمان المتنافسان أن الصراع المسلح بينهما لم يعد نصرًا أو هزيمة ، وإنما أصبح دمارًا شاملاً متبادلاً ، والكل فيه مهزوم !.

وهكذا بدأ عصر الحرب الباردة . وبمقتضاه فإن المنافسة والخصومة ظلت قائمة ، ولكن التحكم فيها أصبح ضروريًا لأن الحرب المسلحة أصبحت مستحيلة .

أى أن المنافسة تمثلت فى الجانب العقائدى بالدرجة الأولى ، أى أنها أصبحت اقتصادية واجتماعية وسياسية . وبالتالى فقد تحولت إلى مباراة حامية يتعين على كل طرف أن يثبت فيها لشعبه أنه «الفكرة الأصلح» – وللآخرين أنه «الفكرة النموذج» .

وبالطبع فقد كان السند الحقيقى والنهائى لهذه المباراة الحامية هو مقدرة الردع تحميها من مفاجآت القوة ، واقتضى ذلك تسابقًا إلى الاستعداد العسكرى حتى لا يحصل طرف على ميزة أو يحقق اكتشافًا خارقًا يمكنه من فرض شروطه على سير المباراة – وهكذا كان سباق السلاح .

وكان «ستالين» لا يزال يحكم بيد من حديد فى الاتحاد السوفيتى حين ظهرت الأحلاف ، وبذلك فقد كان هو الوحيد الباقى من أيام «يالطا» و «بوتسدام» – إلى «وارسو» . وعندما مات «ستالين» سنة ١٩٥٣ – فإن قبضته الحديدية كانت مازالت تمسك بالشرق الأحمر رغم كل محاولات خلفائه وأبرزهم «نيكيتا خروشوف» لفكها والتحرر من ضغطها .

* * *

وكانت الآثار والنتائج المترتبة على الحرب الباردة فى ظل سباق السلاح ، غالية التكاليف ، لكن شأنها شأن كل ما يفعله الإنسان لم يكن شرًا مطلقًا ، كما أنه بالطبع لم يكن خيرًا مطلقًا .

وصحيح أن الحرب الباردة فى ظل سباق السلاح أضاعت على البشر موارد طائلة تكاد

تصل فى حسابها المالى إلى ثلاثين تريليون دولار (أى ٣٠ ر ٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٠٠٠ دولار) ـ أكثر من ثلثها صرفته الولايات المتحدة (أى ما يوازى مجموع متوسط ناتجها القومى لخمس سنوات كاملة !) ...

وصحيح أن الحرب الباردة فى ظل سباق السلاح ارهقت أعصاب العالم فى أوقات اشتداد الأزمات ، وبالفعل فقد مرت على العالم ساعات احتبست فيها أنفاسه من الخوف والرعب ...

وصحيح أن الحرب الباردة فى ظل سباق السلاح أوصلت بعض بؤر التوتر الدولى إلى حروب محلية أو اقليمية محدودة فضل الطرفان فيها أن يتقاتلا بالوساطة وأن يجربا كفاءة سلاحها تحت ظروف القتال دون أن يتورطا فيه مباشرة ...

صحيح كل هذا وغيره ، ومع ذلك فهو لا ينفى أنه على الجانب الايجابى من الحرب الباردة ـ تحققت مزايا لا مجال للشك فى أهميتها وفضلها . فقد أدى سباق السلاح إلى اختراقات فى مجالات التكنولوجيا ـ الطاقة النووية والفضاء والمواصلات والاتصالات والكيمياء الصناعية وغيرها ـ ووصلت هذه الاختراقات إلى مجالات الانتاج والخدمات ، وفتحت أمام البشرية آفاقاً كانت تبدو من قبل وكأنها من أوهام كتاب قصص الخيال العلمى .

وعندما وصل البشر إلى هذه الآفاق حدثت تغييرات بلا حدود فى نوعية وكيفية حياة الناس كل يوم وفى ايقاع هذه الحياة وفى مذاقها ـ وفى امكانياتها ومطالبها أيضًا .

وبهذه « النقلة » الهائلة فى التاريخ الاجتماعى للإنسان بان أن العقائد القديمة أصبحت تحتاج إلى مراجعة تكاد تصل إلى الأساس .

فالرأسمالية ـ بتركيزها على حافز الربح دون أى اعتبار آخر ـ تحوّل المجتمعات إلى غابات وحوش وزواحف !.

والشيوعية ـ بتركيزها على مطلب المساواة دون أى اعتبار آخر ـ تقوم بعملية أشبه ما تكون بتسطيح كل تضاريس الطبيعة البشرية ، وهو ضرب من المستحيلات .

* * *

والواقع أن هذه « النقلة » الكيفية والنوعية فى التاريخ الاجتماعى للإنسان أحدثت

فوراناً مذهلاً تبدت آثاره فى عملية حراك اجتماعى عالمى راحت معدلاته تزيد بشدة يومًا بعد يوم .

وكان هذا الحراك الاجتماعى العالمى فى جانب من جوانبه يصنع عملية تاريخية فادحة الأثر ، وفى الواقع فإنه كان يعيد تشكيل التركيب الطبقى (والفكرى ومن ثم العقائدى) ـ على مستوى العالم .

وكانت أبرز الملامح فيما بدا من التشكيل الطبقى الجديد للعالم أن الطبقة الوسطى يتسع نطاقها بشكل مهول .

وهكذا تغير المحتوى العقائدى لمباراة الحرب الباردة فى ظل سباق السلاح .

وكانت الحقيقة التى تجلت بعد ذلك هى أنه لا طبقة «الرأسمالية» (التى اعتبرت نفسها متفردة بحق الثروة) ، ولا طبقة «البروليتاريا» (التى اعتبرت نفسها وريثة وحيدة للحقيقة الاجتماعية) ـ هى الفاعل الرئيسى فى المجتمعات ، وإنما أصبح الفاعل الرئيسى الجديد هو : الطبقة الوسطى التى اتسعت وتمددت بسرعة وتحولت إلى ساحة هائلة تدفقت فيها آمال وطموحات وتطلعات تتمتع بحيوية فائقة وخيال مقتدر وقوة فعل لم تتوافر على الاطلاق لأى «تشكيل اجتماعى» سبق !.

أصبحت الطبقة الوسطى هى مستودع الحراك الاجتماعى الجديد ، ولعلها كانت كذلك طول التاريخ . فإن القلة التى تصعد إلى أعلى السلم الاجتماعى تنفذ منها ، كما أن الكثرة المتزاحمة عند أول درجاته تطلب الوصول إليها .

وعندما فقدت «الرأسمالية» أساس دعواها بالحق «الطبيعى» فى السيطرة والتحكم ـ وعندما فقدت «البروليتاريا» مبرر دعواها بالحق «الاجتماعى» فى احتكار السلطة ـ فإن الطرق تفتحت واسعة وعريضة فى العلاقة بين الاقتصاد والسياسة ـ ربما لأول مرة فى التاريخ .

فلم يعد ممكنًا لأحد أن يتحدث عن حرية اقتصادية بدون حرية سياسية ـ وإلا كانت النتيجة ثورة .

ولم يعد ممكنًا لأحد أن يتحدث عن حرية سياسية بدون حرية اقتصادية ـ وإلا كانت النتيجة ثورة .

وإنما تلازمت كل الحريات وامتزجت فى مطلب واحد اقتصادى وسياسى فى نفس الوقت تسعى إليه وتطالب به أوسع الكتل الاجتماعية فى كل وطن من الأوطان . كتلة أوسع من «الرأسمالية» وأوسع من «البروليتاريا» .

ولم يكن فى إمكان قوة على الأرض أن تصد وتمنع ، مهما كان لون القناع الذى تضعه على وجهها أحمر أو أزرق . أسمر أو أسود !.

وفى المحصلة النهائية تفجر وتدافع «الطوفان» الذى جرف الضوابط الثلاثة الحاكمة فى العالم من اتفاق «يالطا» إلى اتفاق «بوتسدام» إلى اتفاق حلف الاطلنطى وحلف وارسو ...

* * *

ولقد كان بين ما قصدت إليه فى هذه المقدمة أن أشرح نقطة أساسية لا يصح أن تضيع فى زحام الاجتهادات والتحليلات ، وهى أن المشاهد «الخرافية» التى تراها الدنيا الآن ـ لم تهبط من السماء فجأة ، ولم تجئ لأن القمة فى الكرملين بعد «ستالين» وخلفائه وصل إليها رجل واحد اسمه : «ميخائيل جورباتشوف» . فالتحولات الكبرى فى التاريخ لا تحدث بأسلوب الانقضاض من الهواء على غير انتظار ، وإنما تحدث هذه التحولات بقوانين التطور ذاتها . تغييرات كمية . تتراكم بعضها مع بعض . ويحدث تراكمها تفاعلات تؤدى فى لحظة من اللحظات إلى تغير كيفى يبدو فوريًا وليس هو كذلك فى حقيقته .

كمثل ميلاد الحياة فى جنين الأم . كمثل البذرة فى باطن الأرض .

فى البداية تبدو ساكنة كالجماد . ثم تطرأ تغييرات تتراكم مع بعضها كمًا . وعند لحظة معينة من التراكم تدب الحياة ويحدث التحول الكيفى (بارادة الخالق) ـ ثم يختلف ما «جد» تمامًا عن طبيعة ما «كان» ـ وهكذا .

ومعنى ذلك أن الزلزال السوفيتى لم يحدث فجأة ، ولا كان الطوفان الذى أعقبه بدون مقدمات ، ثم أن ما هو قادم بعد الزلزال والطوفان كلاهما لا يمكن أن يحكمه اجتماع فى مياه مالطا التى هاجت فجأة بعد هدوء ـ بين «جورج بوش» و «ميخائيل جورباتشوف» . ولا اجتماع آخر بينهما فى الربيع عندما يقوم «جورباتشوف» بزيارة الولايات المتحدة .

وإنما هناك متغيرات أبعد من ذلك كله وأوسع وأعمق !.

* * *

إن هذه المتغيرات الفادحة لا تعنى «نهاية التاريخ» كما تصور أحد كبار المفكرين الأمريكيين وهو «فرانك فوكوياما» (من أصل يابانى) ، حين كتب رسالة شهيرة احتدمت حولها مناقشات عالية الصوت والصدى فى ربيع ١٩٨٩ ، وكان عنوانها بالضبط «نهاية التاريخ ؟» ، وكان تصوره أن التحولات الجارية الآن تعنى حل التناقضات التى شغلت فكر البشرية طويلاً . وكان يتحدث عن «تناقضات الفكر» التى تصور «هيجل» أنها انتهت بانتصار «نابليون» فى معركة «اينا» لأن هذا الانتصار كان فى جوهره انتصارًا لـ «فكرة» الثورة الفرنسية على الكنيسة والاقطاع ـ وكان ذلك خطأ وقع فيه الفيلسوف الجدلى العظيم .

وقد استعاد الاستاذ الأمريكى اللاحق تصور الفيلسوف الألمانى السابق وسحبه على أزمة الشيوعية واعتبرها مرة أخرى «نهاية التاريخ» بانقضاء التناقض فى «الفكر» بين الرأسمالية والشيوعية ، وأظنه بدوره أخطأ . فالتناقضات فى حياة البشر هى حياتهم ذاتها ، وكل اشكالية يتم حلها تفسح الطريق لاشكالية جديدة .

وتقديرى أن أحوال العالم بعد الزلزال السوفيتى والطوفان الذى راح يهدر بعده سوف تجىء معها بمشاكل طارئة قد تكون هى بالذات عناصر تناقضات العالم فى القرن الواحد والعشرين ، ومن بين هذه المشاكل مثلاً مايلى :

١ ـ إن كل إنسان وكل شعب وكل أمة تحتاج ضمن مقومات هويتها أن تعرف وتحدد «الآخر» الذى تتميز هويتها بالتعارض معه .

فالغرب الرأسمالى ـ سواء فى حلف الأطلنطى أو خارجه ـ كان يعرف نفسه إزاء «الآخر» ، وهو حلف وارسو وبقية العالم الشيوعى .

والآن لم تعد هذه المعرفة بـ «الذات» وبـ «الآخر» كافية .

٢ ـ إن خطوط التقسيم العقائدى والعسكرى فى مرحلة سبقت أحدثت وراءها تراكمات من تعبئة اقتصادية واجتماعية وإعلامية قامت بالتحريك والتنشيط ، والآن تنهار الخطوط ولا تجد التراكمات القديمة حائطًا (مثل حائط برلين) تستند عليه . ولابد أن تنشأ خطوط أخرى ، وليس بالضرورة حدود !.

٣ – وكانت هناك سلطة كبيرة فى الغرب والشرق معًا لما أسماه الرئيس « ايزنهاور » يومًا بالمؤسسة العسكرية – الصناعية ، وهى مؤسسة تقوم بالدرجة الأولى على السلاح ، وهذه المؤسسة الضخمة مهددة الآن فى عقر دارها ، وليس هينا أن « بوش » قبل ذهابه إلى لقاء « جورباتشوف » أرسل إلى الكونجرس الأمريكى مشروعًا بتخفيض ميزانية السلاح بمبلغ ١٨٠ بليون دولار على مدى السنوات الثلاث القادمة .

ومعنى ذلك أن هناك تناقضات مصالح داخلية – تحل محل تناقضات مصالح خارجية ! .

٤ – إن سقوط خطوط التقسيم سوف يؤدى إلى بعثرة فى الصفوف قد تختلف معها المواقع وتختلف التوجهات دون ضابط للإيقاع ، وهو دور كانت واشنطن تقوم به غربا وموسكو تقوم به شرقا .

وإذا غاب دور « ضابط الإيقاع » فمن الذى يضمن ألا تغطى آلات الطبل والنفخ والنحاس على الناى والوتر والبيانو مثلا ، حتى وإن بقى عازفو الأوركسترا على كل ناحية بالقرب من بعضهم البعض ؟!

ومعنى ذلك أن الدنيا على وشك أن تسمع أنغاما متعارضة ومتقاطعة !

٥ – وفى مرحلة سابقة كانت الشعارات قادرة وحدها على أن تكون سياسات ، بمعنى أنه كان فى مقدور رئيس أمريكى مثل « رونالد ريجان » أن يتحدث عن « امبراطورية الشر » فيفهم عنه الناس فى أمريكا وأوروبا ويسيرون وراء سياساته . كما أن رئيسا سوفيتيا مثل « بريجنيف » كان فى مقدوره أن يصل إلى نفس النتيجة عندما يتحدث عن الاحتكارات الامبريالية وسيطرتها ! .

والآن تحتاج السياسة إلى لغة جديدة فى الخطاب .

٦ – ويترتب على ذلك أن عصر التأثير بالانطباعات يوشك أن ينتهى ويحل معه عصر يصعب أن يتحقق فيه الاقتناع بمجرد الانطباع ، ومعنى ذلك أن شعوب العالم سوف تطلب نتائج مؤكدة أمام عيونها وليس مجرد شحنات نفسية .

فعندما يكون الصراع العقائدى دوليا يكون التركيز أكثر على السياسة الخارجية ، وفى مجالها يفترض الناس أن قادتهم يعرفون أكثر منهم ... وأما سياسة النتائج المحددة فهى عمل مجاله الداخل بالدرجة الأولى، وفيه فإن الناس يصلون إلى

معرفة الحقائق عن طريق حياتهم كل يوم وما يزيد أو ينقص فيها .

٧ – إن ما يجرى الآن فى الاتحاد السوفيتى وفى أوروبا الشرقية هو قصة مازالت فى بدايتها ، وفى الغالب فإن بداية أى قصة تختلف عن نهاياتها ، والتاريخ دائما يعلم قارئيه أن الذين يقودون التحولات الكبرى يقعون غالبا بين المطرقة والسندان .

فالأوضاع السابقة على ظهورهم تملك قوة الأمر الواقع وما ترسب فيه من تجارب ، والآمال التى تحركهم تنقلهم إلى أجواء غريبة عليهم ثم أنها تدفعهم بأسرع مما يقدرون على ملاحقته – وإذا حدث ذلك ، وهو محتمل ابتداء من « ليخ فاونسا » فى بولندا إلى « ميخائيل جورباتشوف » نفسه فى موسكو – فمن بعدهم ؟ وكيف ؟ وإلى أين ؟.

٨ – وفى وسط هذه الظواهر من الارتباك والخلخلة فمن الذى يتقدم لاستغلال الفرص السانحة : كيف تتحرك ألمانيا مثلا ؟ – كيف تتحرك اليابان ؟ – كيف وراء كل هؤلاء أو قبلهم تتحرك الولايات المتحدة ؟.

بل كيف يتحرك من هم أصغر من هؤلاء جميعا ؟ – ويلفت النظر مثلا أن « جورباتشوف » وهو فى إيطاليا قبل أن يتوجه إلى قمة مالطا بارك توقيع عقد مع شركة « فيات » تستثمر بمقتضاه فى روسيا ٩٠٠ مليون دولار . وتبدو السوق السوفيتية الجائعة إلى التكنولوجيا أرض ميعاد جديدة للباحثين فى الغرب عن فرص للاستثمار .

وإذن فكيف يحدث السباق نحو الشرق ؟ ومن يصل فيه أولا ؟ ومن يستفيد أخيرا ؟.

٩ – وعلى غير مستوى القوى الدولية ، فكيف يتحرك ما هو أقوى من هذه الكتل وأكثر عراقة وأبعد جذورا فى الأرض . ما الذى تفعله المسيحية الأرثوذكسية فى روسيا مثلا ؟ والمسيحية الكاثوليكية ؟ ثم – وهى قضية مثارة فعلا – ما الذى يفعله الإسلام فى الجمهوريات الجنوبية للاتحاد السوفيتى ؟

ولقد كانت زيارة « جورباتشوف » للفاتيكان والتقاؤه هناك بالبابا « جون بول » الثانى اعتذارا سوفيتيا كاملا عن عبارة « ستالين » الشهيرة التى قال فيها : « البابا ... البابا ؟ ماهى قوته ؟ وكم فرقة عسكرية لديه ؟» !

وهذه مجرد افتتاحية . وكل افتتاحية لها ما بعدها .

١٠ – وهذه قضية مباشرة وهى تتصل بالاتحاد السوفيتى نفسه وبـ « ميخائيل جورباتشوف » شخصيا .

لقد أدرك عددا من الحقائق ، وكان لديه الوعى للنزول على أحكامها :

- أدرك مثلا أن الاتحاد السوفيتى لا يستطيع مواصلة سباق السلاح ، والأولى به الآن أن ينقل اعتماداته لكى يضخها دما جديدا فى عملية الإنتاج والخدمات – لكن هذا النقل ليس سهلا على فرض أنه تم بدون مقاومة من آخرين . ويقدر الخبراء أن الموارد المنقولة من السلاح إلى الإنتاج والخدمات يستحيل أن يظهر أثرها قبل فترة تتراوح بين خمس سنوات وعشرة . وهذه فترة فى الزمن السياسى طويلة خصوصا إذا كان صبر الناس نفد أو فى طريقه للنفاد .

- ولقد أدرك مثلا أنه لم يعد فى مقدور السلاح السوفيتى – كما فعل فى تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨ – أن يمنع الاصلاحات السياسية الضرورية ، وأولها التعددية بما تعنيه من ضرورة انتهاء احتكار السلطة للحزب الشيوعى وحده .

والتحدى الذى يواجهه هو : هل يستطيع أن يسمح بهذه التعددية لبولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية ، ثم يرفض السماح بها فى الاتحاد السوفيتى نفسه ؟.

وإلى أى مدى يستطيع أن يرفض ؟ وإذا لم يرفض فإلى أى مدى يستطيع أن يصمد هو أو حزبه على القمة فى الكرملين ؟ وإذا صمد فما هو الثمن ؟ وإذا لم يصمد فما هو البديل ؟

* * *

وقد وصلنا الآن إلى منحنى على الطريق ظاهر ، فكل ما قلته حتى الآن يجرى فى « الشمال » – أمريكا الشمالية ، وأوروبا غربا وشرقا ، واليابان . وهناك فى العالم تحت الشمال « جنوب » . و « الشمال » فى مرحلة من التطور متقدمة ، و « الجنوب » مازال بعيدا .

وفى المرحلة السابقة كانت تناقضات العالم مزدوجة : غرب وشرق ، أى رأسمالية وشيوعية . ثم شمال وجنوب ، أى غنى وفقير .

وفى حين أن المتغيرات العالمية تتدفق كلها فى الشمال ، فإن الجنوب حتى هذه اللحظة

لا يملك إلا أن يراقب مبهورا أحيانا . خائفا فى أحيان أخرى . وفى معظم الأحيان لا يظهر عليه أنه واصل فيما يراه إلى استنتاجات صحيحة أو قريبة من الصحة .

وهنا أصل إلى نقطة أخرى لابد أن تشغلنا ، وأعنى بها رؤانا نحن فى العالم الثالث عموما ، ونحن هنا فى العالم العربى على وجه الخصوص – إلى ما جرى ويجرى ويواصل جريانه إلى القرن الواحد والعشرين . وهناك مجموعة ملاحظات أولية أجازف بعرضها على النحو التالى :

١ – سوف تكون مشكلة إذا لم يفهم العالم الثالث حقيقة موقعه على طريق التطور فإذا هو يجرى فى مواكب الزحام على غير هدى .

والحقيقة أن العالم الثالث بدأ بالكاد خطواته الأولى على الرحلة الطويلة لعملية التنمية . وأول احتياجات التنمية ضرورة توافر التراكم الأساسى لرأس المال . وهذه الضرورة لا يمكن أن تصنعها أداة غير التخطيط العلمى الواعى للموارد ، بما فى ذلك دور كبير تقوم به الدولة (وذلك مهما كانت الدعاوى أساس معجزة اليابان وألمانيا الغربية وغيرهما) .

ولقد حدث تراكم رأس المال فى الشمال نتيجة لعهود قاسية وظالمة من الاقطاع والاستغلال ، ثم لحقتها عصور طويلة ومظلمة جرى فيها نزح ثروات المستعمرات . وبصرف النظر عن الخطأ والصواب فإن عملية التراكم تحققت وبسندها تحققت أسباب التنمية ، ولم يعد ذلك متاحا فى العصر الحديث للدول ، ولا هو مما يدخل فى طاقة الأفراد وحدهم .

وليس من حق طبقة فى المجتمع ، ولا فئة ، أن تزعم لنفسها دورا أو حقا يخرج عن مراحل التطور فى أوطانها ، وإلا كانت تغامر بالمستقبل العريض تحت وهم « مجاراة العصر » أو طمعا فى « غنائم فرص » تظنها سانحة !

٢ – سوف يكون خطأ أن يتصور اليسار فى العالم العربى أن الزلزال فى الاتحاد السوفيتى والطوفان بعده – كلاهما ظواهر عابرة لا تلبث أن تنقضى وينساها التاريخ الذى شهد مثيلات لها من قبل – فهذا الذى يجرى بلا سابقة لأنه أحكام عصر جديد كذلك العصر الذى اكتشف الإنسان فيه الزراعة لأول مرة ، ومن ثم اختلفت معالم حياته على الأرض .

كذلك سوف يكون خطأ أن يدعى أحد أن ما هو ظاهر فى الاتحاد السوفيتى وفى أوروبا الشرقية تجاوز فى التطبيق ليس له أن يمس الفكرة . وليس ذلك صحيحا لسبب رئيسى وهو أن عملية الإنتاج بما فيها عناصر قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج وفائض القيمة - لم تعد تخضع لتصورات القرن التاسع عشر ، وبالقطع فإن الصراعات الاجتماعية باقية ولكنها بالتأكيد سوف تعثر لنفسها على تحليلات متطورة .

٣ - سوف تكون مأساة لو أن اليمين التقليدى فى العالم العربى تصور أن مايجرى الآن فى العالم انتصار صريح أو ضمنى له ، فليست تلك حقيقة . فاليمين العربى - أو ما يسمى بذلك - ليس يمينا حقيقيا بالمعيار الرأسمالى ، وإنما هو - فى معظمه - يمين متطفل على مصادفات ظروف ، وهو لم ينجح حتى فى تحويل هذه المصادفات إلى رأسمالية إنتاج .

ولقد تعززت صفوف اليمين التقليدى بعناصر مستجدة فى السبعينيات والثمانينيات راحت تغالى فى سلوكها ومطالبها إلى درجة الابتزاز دون أن تدرك أن الحقائق الأبرز والأكثر وضوحا فى التطورات الجارية تكشف - بين ماتكشف - أن المستقبل كله لإدارة علمية - ومسئولة إجتماعيا - سوف تكون هى ، قبل غيرها من العناصر ، سند الملكية وأساس شرعيتها . كما أنه ليس هناك قانون ولا سلطة تقدر على حماية تفاوتات هائلة فى الدخول تستغنى عن شريعة العدل وشرعيته ، وربما كان التآكل - إلى درجة الحرب الأهلية - فى أمريكا الوسطى واللاتينية درسا يستحق الفحص والتدقيق .

ومع ذلك فلعل اليمين العربى - قديمه وجديده - يتذكر أن اليمين الأكثر عراقة والأصلب عودا يواجه أزمة فى البلدان المتقدمة تصل إلى معاقله الكبرى . ويكفى أن نتابع الحوار الدائر فى بلد مثل بريطانيا - حيث كتب « آدم سميث » كتابه الشهير « ثروات الأمم » وهو انجيل الرأسمالية - لكى يسمع صوت الحوار الخطير الدائر بين غلواء السيدة « مرجريت ثاتشر » رئيسة وزراء بريطانيا وبين تعقل القصر الملكى مدعما بسلطة الكنيسة ذاتها . فى حين أن صوت « مرجريت ثاتشر » يسمع صاخبا بآراء مبالغة فى التبسيط عن « الحرية الاقتصادية » بغير قيود - فإن الملكة وكبير

أساقفة « كانتربرى » يقفان أمامها بحزم فى المطالبة بالحفاظ على مصالح الفقراء وحقوقهم مخافة أن تجد بريطانيا نفسها منقسمة إلى مجتمعين بدلا من مجتمع واحد فى عصر لم يعد يرضى بذلك أو يسمح به .

ولعل الفجوة بين الطرفين هى فى « مدى الرؤية » بالنسبة لكل منهما . ففى حين أن « مرجريت ثاتشر » تتصرف فى حدود ولاية خمس سنوات هى مدة أى مجلس للعموم - وبالتالى أغلبية تمكنها من رئاسة الوزارة (وهى مدة محدودة حتى إن تكررت) - فإن ملكة بريطانيا وكبير أساقفة « كانتربرى » يتصرفان بنظرة أوسع للمستقبل ، فكلاهما - الملكية والكنيسة - يعتبر نفسه مؤسسة دائمة فى الحاضر وفى المستقبل - وهذا ما يعطى لرؤيتها وزنها الحقيقى وقيمتها الأصيلة .

وربما أضفت أن فى بريطانيا الآن قضية لها دلالة تتصل بهذه المعانى . فهناك الآن قضية بين آلاف من طلبة الجامعات وعشرات من البنوك . فهؤلاء الطلبة كانوا قد اقترضوا من البنوك ما مجموعه « بليون » جنيه استرلينى يغطون بها نفقات تعليمهم العالى فى الجامعات ، ثم يعيدون تسديدها بعد ذلك حين يبدأون حياتهم العملية . والآن - ومع الرياح التى تهب من وارسو وبودابست وبرلين الشرقية - يرفض الطلبة الإنجليز الذين تخرجوا أن يدفعوا ما استحق عليهم ، بمنطق أن التعليم حق لابد للمجتمع أن يكفله لهم !.

وهى قضية تستحق الوقوف أمامها ...

٤ - إن صور ما يجرى فى الاتحاد السوفيتى وفى أوروبا الشرقية منشورة فى صحفنا كل يوم . والصورة عادة للمشاهدة . نتفرج عليها بينما نقرأ ما هو مكتوب . وفى هذه الحالة المستجدة يجب أن نفعل العكس . أى أننا يجب أن نقرأ الصور - ثم لنا بعدها إذا أردنا أن نتفرج على ماهو مكتوب .

إن الصور تستحق - لأول مرة - أن تقرأ ، وإذا جاز لأى منا أن يظن أن الصور - صور ، فإن المسألة هذه المرة لها عمق آخر .

الصور هناك داعية إلى التفكير وداعية إلى التأمل ، وهذا العالم لم يعد يعرف حدودا . وقد نستطيع التحوط ضد انتقال الأمراض - مثل « الايدز » مثلا - لكن البشرية لم تعرف من قبل تحوطا ضد الأفكار .

كان المرض فى الماضى هو الذى يسبب العدوى وحده . والآن فإن الصحة لأول مرة فى التاريخ قد تكون معدية !

٥ - إن ما يجرى فى أوروبا الشرقية شاهد آخر على عجز السلطة . والحاصل أن الشوارع الآن وليست القصور هى التى تقرر المصائر فى عصر جديد .

ولقد كان اقتناعى أن هناك لحظات فى التاريخ تصبح فيها الميادين المفتوحة أقوى من القلاع المحصنة ، وتصبح فيها المظاهرات السلمية سلاحا أفعل من عتاد الجيوش ، وتصبح فيها الفكرة أعلى دويا من القنابل حتى وإن كانت ذرية ! .

ولقد كانت الترسانات النووية للحلفين الكبيرين ، حلف الأطلنطى وحلف وارسو ، تضم مخزونا يصل إلى قرابة ربع مليون رأس نووى تملك قوة تدمير تكفى لتمزيق الكوكب الأرضى ست مرات وتحويله إلى شظايا عالقة بفضاء الكون ومعها رماد كل الأحياء الذين عاشوا عليه .

وكان هذا كله تحسبا واستعدادا لدعم المباراة الساخنة وراء الحرب الباردة .

ثم جاء صيف وخريف ١٩٨٩ ....

وانتهت الحرب الباردة على حد تعبير « جورباتشوف » نفسه بعد ختام قمته العائمة مع الرئيس الأمريكى « جورج بوش » ، وتحوّل مخزون الدمار الشامل إلى مخزن « مخلفات وفضلات » لابد من التفكير فى طريقة لكنسها حتى وإن كانت قيمة هذه « المخلفات والفضلات » قد زادت على ثلاثين تريليون دولار ! .

محمد حسنين هيكل

الزلزال السوفيتى

مُوسكو

أكتوبر - نوفمبر ١٩٨٩

خلفيات اللقاء المنتظر
بين « بوش » و « جورباتشوف »

أوروبا الشرقية من مبدأ « بريجنيف »
إلى مبدأ « فرانك سيناترا » ؟!

« البيروسترويكا » و « الجلاسنوست »
والعلاقة العضوية بين الاثنين

(١)

غادرت موسكو عن طريق مطار « شيرمتييفو ٢ » فى نفس الساعة التى كان العالم يستمع فيها إلى الاعلان عن اجتماع على مستوى القمة الدولية بين الرئيس الأمريكى « جورج بوش » والرئيس السوفيتى « ميخائيل جورباتشوف » يتم فى أول الشهر القادم ـ ٢ ، ٣ ديسمبر ١٩٨٩ ـ فوق مياه البحر الأبيض ، يوماً على ظهر قطعة بحرية أمريكية ، ويوماً على ظهر قطعة بحرية سوفيتية .

وكان « جورج بوش » هو الذى أعلن بنفسه نبأ الاجتماع من قاعة المؤتمرات فى البيت الأبيض ، ومن خلفه وقف كبار مستشاريه ـ وفى نفس الدقيقة كان « ادوارد شفرنادزه » وزير الخارجية السوفيتية هو الذى تولى إعلان النبأ فى قاعة المركز الصحفى فى موسكو ، وإلى جواره رجل واحد هو « جنادى جراسيموف » المتحدث الرسمى باسم الرئيس السوفيتى .

* * *

وكان إعلان النبأ نصف مفاجأة ، لأن عواصم مؤثرة فى التحالف الغربى كانت تلح على الرئيس الأمريكى أن يتقدم بخطوة سريعة تتلاقى مع التداعيات والتفاعلات الهائلة التى تجرى فى الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية ، وبدا الرئيس الأمريكى لبعض الوقت متردداً تحت تأثير التيار المحافظ فى صنع القرار

الأمريكى ، وهو تيار يشعر الآن بنشوة لا يداريها ، لاعتقاده بأن الرياح تملأ شراعه وتندفع مع هواه !.

وكانت الاتجاهات السائدة فى البيت الأبيض طوال شهور الصيف ـ وقد سمعت مجملها فى باريس قبل الرحلة إلى موسكو ـ على النحو التالى :

« لماذا يتعين على واشنطن أن تلاحق التداعيات والتفاعلات الهائلة التى تجرى فى أوروبا الشرقية ـ قرب منتصف الطريق ؟ ولماذا لا تبتعد هى ولو قليلاً حتى تأخذ هذه التداعيات مداها وتصل إلى نهايتها المحتومة بسقوط الشيوعية فكرة وتجربة ونظاما ؟ ولماذا يتحتم على الولايات المتحدة أن تمد الآن يدا إلى خصم وقف أمامها متحدياً أكثر من ثلاث حقب متوالية فى الخمسينيات والستينيات والسبعينيات من هذا القرن ؟ ولماذا يكون واجبًا على « جورج بوش » أن يتقدم لتخفيف الضغوط الواقعة على « جورباتشوف » من تداعيات وتفاعلات ما يجرى الآن فى الاتحاد السوفيتى وما حوله من دول أوروبا الشرقية ؟.

ثم إن هناك موعدًا محددًا بين الاثنين فعلاً فى صيف ١٩٩٠ عندما يقوم الرئيس السوفيتى بزيارته الرسمية المقررة للولايات المتحدة الأمريكية ، وإذا كانت مخاطر التداعيات والتفاعلات الجارية الآن لا تستطيع الانتظار حتى ذلك الموعد ، فالمشكلة ليست مشكلة « جورج بوش » وإنما مشكلة « ميخائيل جورباتشوف » ! » .

ثم يتواصل منطق الاتجاهات السائدة وقتها فى البيت الأبيض ـ تحت تأثير التيار المحافظ ـ فيخلص إلى أن موقف الانتظار والترقب قد يكون أسلم المواقف لأنه لا يتضمن أى مخاطرة محسوبة أو غير محسوبة ، خصوصًا وأن حقيقة موقف « جورباتشوف » مازالت غامضة أو على الأقل ملتبسة ـ وفى كل الأحوال : من هو ؟

- هل هو رجل يحاول انقاذ عقيدة يؤمن بها من أزمة تواجهها ـ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا تساعده الولايات المتحدة ؟

- هل هو رجل يحاول انقاذ نظام يقف على قمته من عاصفة تهب عليه ـ وإذا كان الأمر كذلك فتلك قضيته ولا شأن لـ « جورج بوش » بها ؟
- أو هل هو رجل يحاول أن ينقذ نفسه وسط طوفان يهدده شخصيًا ـ وإذا كان الأمر كذلك فأى جدوى من المحاولة مادامت المسائل قد وصلت إلى هذا الحد ـ انقاذ رجل مازال موقفه غامضًا أو على الأقل ملتبسًا . فضلاً عن أنه مهما بدا من ذكائه وبراعته لا يمكن إلا أن يكون نتاجًا طبيعيًا للنظام الذى عاش وظهر فيه ؟!.

كان مجمل هذه الاتجاهات السائدة فى البيت الأبيض يصل إلى باريس وتجرى مناقشته فى أروقة « الأليزيه » ـ قصر الرئاسة ـ والـ « كاى دورسيه » ـ وزارة الخارجية . وكان الرئيس « فرانسوا ميتران » ـ وهو الآن رجل الدولة الأكثر بروزا فى أوروبا الغربية ـ قد توصل إلى قناعة مؤداها :

« إن هذه الاتجاهات تبسيط وتسطيح للأمور لا تحتمله حقائق العالم المعاصر ، ولا حقائق الوضع الدولى الراهن . فالاتحاد السوفيتى مهما اشتدت أزمته أو أزماته هو إحدى القوتين الأعظم فى هذا الزمان ، ثم إن انفراط أوروبا الشرقية بالتداعيات والتفاعلات غير المنظمة كفيل بأن يحدث خللاً مفاجئًا فى التوازن الأوروبى الذى ساد منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية » .

ومن هنا كان رأى « فرانسوا ميتران » : « إن انتظار التداعيات والتفاعلات الجارية فى الشرق حتى تأخذ مداها ـ قصور فى الادراك والتحليل ، وأنه لابد من حركة غربية سريعة ونشيطة تجاه الشرق » .

وربما أن « فرانسوا ميتران » ـ إلى جانب رؤيته الواضحة لضرورات التاريخ ـ كان يشعر أيضًا بضرورة فرنسية بحتة لم يكن يفصح عنها صراحة ، وهى تخوفه من أن تتحرك ألمانيا وتسبق الجميع فى اتجاه الشرق ، وهذه ظاهرة متكررة فى التاريخ الأوروبى ، فالحيوية الألمانية المركزة كانت دائمًا منجذبة إلى الفرص الهائلة المتاحة فى روسيا الشاسعة ، وكان التعبير الذى يصوغ هذه الظاهرة

هو أن «الزمان الألمانى يحلم دائمًا بالمكان الروسى» ـ أى أن كل زمن للقوة فى ألمانيا كان يراوده الطموح باستمرار إلى امكانيات روسيا المكدسة من وسط أوروبا إلى شواطئ المحيط الهادى .

وربما أن مخاوف «فرانسوا ميتران» من التقاء «الزمان الألمانى مع المكان الروسى» (فضلاً عن الاحتمالات المتسارعة بامكانية توحيد ألمانيا ، وهو طارئ يستطيع قلب معادلات الأمن الأوروبى رأسًا على عقب) ـ كانت ضمن بواعثه فى الالحاح على عدم الانتظار لما تجىء به التداعيات والتفاعلات فى الشرق . ومن هنا كانت نصيحته فى اطار مشاورات لم تنقطع من الصيف إلى الخريف ـ تحذيرًا ضد سياسة الانتظار ، ودعوة إلى التقدم بخطوة من نوع ما فى اتجاه الشرق .

* * *

وفى لنـــدن ـ وكما هى العادة ! ـ كان الرأى وسطًا أى أنه «مع انتظار التداعيات والتفاعلات الجارية فى الاتحاد السوفيتى ، وضد الانتظار فى نفس الوقت !» .

كان رأى لندن ـ وقد حرصت على أن أسمعه أيضًا قبل الرحلة إلى موسكو ـ أنه «قد يكون من المفيد أن تظهر اشارات متعاطفة من نوع ما إزاء «جورباتشوف» ، والمشكلة هى كيف تجىء هذه الإشارات المتعاطفة ، ومن يقوم بها ؟ ـ والراجح أن «مرجريت ثاتشر» كانت تطمح إلى أن تكون هى بالذات خطوة الغرب فى اتجاه الكرملين . وكان رأيها ـ وهى تكرره كثيرًا بصراحتها المثيرة للفزع أحيانًا :

«إنها هى التى اكتشفت «جورباتشوف» وتوقعت له أن يصل إلى القمة فى الاتحاد السوفيتى ، وذلك عندما زار لندن سنة ١٩٨٣ ، وكان يومها مجرد مسئول عن الزراعة فى المكتب السياسى . (وقد تنبأت هى مبكرًا أنه ـ وليس غيره ـ هو الذى سيخلف «تشرنينكو» الزعيم السوفيتى وقتها والذى كان يموت

بعد أن خلف «آندروبوف» الزعيم السوفيتى الذى مات قبله بسنة واحدة (١٩٨٢) ، والذى كان بدوره قد خلف «بريجنيف» الذى ظل يموت عشر سنوات كاملة هى نصف مدة حكمه الذى يعرف الآن بعصر الركود العظيم !!» .

وكانت «مرجريت ثاتشر» تواصل قولها بنفس الصراحة المثيرة للفزع أحيانًا «إنها هى التى أقنعت «صديقها العزيز» رونالد ريجان (الرئيس الأمريكى السابق) ـ بأن يلعب على «جورباتشوف» باعتباره الحصان الأكثر حظا فى الفوز بزعامة الكرملين وصدق رهانه ورهانها قبله . ثم أنها ظلت ترعى العلاقات بين الرئيس الأمريكى العجوز والزعيم السوفيتى الشاب حتى أنها فى بعض الأحيان ـ وهذا تعبيرها ـ «جعلت من نفسها ممرضة لأولها ومربية للثانى» .

* * *

وفى جنيــف ـ وقد عبرت بها سريعًا على الطريق ـ كان الشعور العام فى المقر الأوروبى للأمم المتحدة أن موقف انتظار التداعيات والتفاعلات فى شرق أوروبا لعب مع الأقدار ، وأنه لابد على نحو أو آخر من مبادرة تمسك بزمام التطورات وتساعد قدر ما تستطيع على تنظيم حركة التداعى والتفاعل ، وكان ملخص الآراء فى جنيف كما يلى :

«إن الذين يتصورون أن الاتحاد السوفيتى على وشك الانهيار هم أغلب الظن جماعات تركت أمانيها تصور حقائقها . إن الاتحاد السوفيتى فى أزمة شاملة فكرية واقتصادية وسياسية ـ هذه حقيقة . وأن الامبراطورية الروسية ، وهى آخر الامبراطوريات الكبيرة فى التاريخ ، تظهر عليها الآن علامات التفكك ـ هذه حقيقة أخرى . وأن الثورة الشيوعية العظمى التى قادها «لينين» والتى بدت لفترة من الفترات موجة المستقبل ، هى الآن عملاق فقد توازنه وأصابه الدوار ـ هذه أيضًا حقيقة ثالثة . لكن هذه الحقائق كلها ـ وربما غيرها ـ ليس من شأنها أن تدعو أحدًا إلى كتابة نعى الاتحاد السوفيتى كقوة عظمى فى هذا العالم .. فى هذا العصر . فالدولة السوفيتية تملك الموارد والامكانات والقدرات

الكفيلة باجتياز أزمتها . وأهم ما يستحق الملاحظة فيما يجرى الآن كله أن الدولة السوفيتية استفاقت أخيرًا من وساوس الوهم والتردد ، وقررت أن تواجه الواقع وليكن ما يكون . وأخطر فترة فى حياة أى كيان سياسى - بل وأى كائن إنسانى - هى اللحظة التى يقرر فيها مواجهة الواقع ، لأنه بهذا القرار يدخل امتحان المصائر فعلاً ، فإما النجاح وإما السقوط !» .

وفى جنيف لقيت - بين من لقيت - الأمير «صدر الدين أغاخان» وكنا فى قلعة «بلريف» التاريخية ، وهى مسكنه على شواطئ بحيرة «ليمان» . و «صدر الدين أغاخان» - أو «صدرى» كما يناديه أصدقاؤه المقربون - مراقب مهتم ومتابع دقيق للتطورات العالمية الجارية . فقد خدم فى الأمم المتحدة سنوات طويلة مفوضًا ساميًا لشئون اللاجئين ، وهو الآن مفوض الأمم المتحدة لاحلال السلام فى أفغانستان ، ومن هذا الموقع فإنه يستطيع أكثر من غيره أن يلمس نبض السياسة السوفيتية ، ثم هو إلى جانب هذا كله صديق مقرب وحميم من الرئيس الأمريكى «جورج بوش» . وكان رأى «صدرى» ونحن نتمشى على شاطئ البحيرة بعد الغداء ما ملخصه :

«إن التحولات التى تجرى فى الاتحاد السوفيتى قاطعة ونهائية ، ولم يعد فى مقدور أحد أن يتراجع عنها ، واعتقادى أنها فرصة لا يجب أن تضيع » .

* * *

وفى باريس - كان الصديق القديم «بيير سالينجر» (وكان «وزير اعلام» الرئيس الأمريكى الأسبق «جون كنيدى» ، ويقوم الآن على إدارة المكاتب الأوروبية لوكالة «اى . بى . سى» ، أكبر شركات التليفزيون فى الولايات المتحدة الأمريكية) - قد قال لى :

- «إننى أيضًا ذاهب إلى موسكو فى منتصف الشهر القادم (أكتوبر) - وأجدنى مقتنعًا مثلك بأنه إذا أراد أحد أن يتعرف على حجم وطبيعة المتغيرات

التى تجرى فى العالم ، فموسكو هى المرصد الأهم الآن» .

ثم أضاف :

- «إننى اتفقت أيضًا مع صديقنا القديم «أليكسى ادجوبى» (زوج «رادا» ابنة الزعيم السوفيتى الشهير «نيكيتا خروشوف» ورئيس تحرير جريدة «ازفستيا» السابق) على أن ألقاه هناك . إننا نفكر فى التعاون معاً لاخراج فيلم تليفزيونى يكون عنوانه «جون ونيكيتا» (يقصد «جون كنيدى» و«نيكيتا خروشوف») وقد كانت العلاقة بينهما - كما تتذكر - بداية الوفاق» .

واستطرد «بيير سالينجر» يقول : «دعنا إذن نلتقى فى موسكو أواخر الشهر القادم ، ولنذهب معًا لزيارة «اليكسى ورادا» - وإذا لم أجئ إليكما فى الموعد فلتعرفا أن شيئًا هامًا حدث أو على وشك أن يحدث» .

وحين ذهبت يوم ٣١ أكتوبر إلى لقاء «اليكسى» و «رادا» فى شقتهما فى شارع «جوركى» قرب أسوار الكرملين ، لم يكن «بيير سالينجر» هناك . وكان معناها أن شيئًا هامًا حدث أو هو على وشك الحدوث . وما هى إلا ساعات حتى أعلن نبأ قمة البحر الأبيض المقبلة بين «بوش» و «جورباتشوف» . وكان «بيير سالينجر» على وجه اليقين مشغولاً بترتيبات تغطية وقائع هذا الاجتماع لمحطة «اى . بى . سى» !.

- كان «جورباتشوف» قد أعطى كل الاشارات الصحيحة أو المطلوبة لكى يقنع المتشككين من غلاة المحافظين فى واشنطن :

- كان **قد تدخل** بنفوذه الشخصى لكى تتألف فى بولندا وزارة تسيطر عليها حركة التضامن المستقلة ، وليس الحزب الشيوعى .
- وكان **قد وافق** على أن يقوم الحزب الشيوعى المجرى بتغيير نفسه ليصبح حزبًا اشتراكيًا ديمقراطيًا لا يحتكر السلطة .
- وكان **قد استعمل** كل وسائله فى الاقناع حتى تسمح حكومتا المجر

وتشيكوسلوفاكيا بفتح الطرق أمام الألمان الشرقيين لكى يذهبوا إلى ألمانيا الغربية مادامت تلك رغبتهم !.

كانت هذه كلها اشارات تومئ إلى أن القبضة السوفيتية تخف عن أوروبا الشرقية .

ثم جاءت من وراء هذه الايماءات اشارة لعلها أهمها جميعًا . فإن الحكومة السوفيتية ـ برئاسته ـ كانت قد اتخذت قرارًا بتعويم الروبل وتخفيض قيمته بنسبة ٩٠٪ تمهيداً لجعله عملة قابلة للتحويل ، وهى خطوة حاسمة لتهيئة الاقتصاد السوفيتى لأحكام قوانين السوق ـ وبالتالى التحاق هذا الاقتصاد بالاقتصاد العالمى ، وهذا تغيير أساسى لا يتصل بالاقتصاد فحسب وإنما يمتد إلى العقائد أيضًا .

وهكذا كان إعلان نبأ الاجتماع الكبير نصف مفاجأة .

أن يحدث لقاء فى منتصف الطريق .. لم يكن مفاجأة .

أن يحدث هذه اللحظة وبهذه الطريقة .. كانت المفاجأة هنا !.

وفى كل الأحوال فإن فرصة رآها كثيرون فى العالم سانحة ومتاحة ـ لم تضع وكان هناك من أمسك بها ولو بعد تردد وطول تفكير ، خصوصًا بعد أن رأى تدفق التيار الجارف وهو يوشك أن يغير خريطة توازن الأمن الأوروبى ـ وألمانيا بؤرته !

* * *

وعشية اليوم الذى غادرت فيه موسكو ـ وقبل إعلان نبأ اجتماع قمة البحر الأبيض بساعات قليلة ـ التقيت على العشاء بمجموعة يندر أن تلتق كلها فى نفس الموعد . نفس المكان .

من ناحية كان هناك «أناتولى دوبرينين» عضو رئاسة مجلس السوفيت الأعلى والمسئول الأول عن العلاقات الأمريكية السوفيتية بحكم أنه قضى ستا وعشرين

سنة بلا انقطاع سفيرًا للاتحاد السوفيتى فى واشنطن (من هذا الموقع تعامل مع سبعة من رؤساء الولايات المتحدة هم : «كنيدى» و «جونسون» و «نيكسون» و «فورد» و «كارتر» و «ريجان» و «بوش» ، إلى جانب وزراء خارجيتهم ومستشاريهم لشئون الأمن القومى جميعًا) .

وكان إلى جانبه «جراسيموف» المتحدث الرسمى باسم «جورباتشوف» وواحد من أقرب معاونيه .

ومن ناحية أخرى كان هناك «زبجنيو برجينسكى» مستشار الأمن القومى للرئيس الأمريكى الأسبق «جيمى كارتر» ، وهو فى نفس الوقت ـ وبحكم أصله البولندى ـ واحد من أكبر الخبراء الأمريكيين فى شئون شرق أوروبا .

وكان إلى جانبه السفير «جاك ماتلوك» السفير الأمريكى فى موسكو وهو دبلوماسى من طراز رفيع اختاره «بوش» فى هذه الظروف ليكون عين الولايات المتحدة وأذنها فى الاتحاد السوفيتى .

وجلسنا ـ وكان معنا سفير مصر المقتدر فى موسكو «أحمد ماهر» ... وهو نموذج لامع لجيل غير عادى فى الدبلوماسية المصرية ـ ورحنا نتحدث فيما جرى ويجرى . والغريب أن نقطة البداية فى حوارنا كانت حديث الفرص الضائعة فى العلاقات بين العملاقين على مستوى القمة الدولية . وكنت أنا الذى أثرته .

وفى البداية ـ وبطبيعة الأمور ذاتها ـ تواصل الحوار ثنائياً بين «دوبرينين» و «برجينسكى» .

وقال «دوبرينين» :

«أكاد أقول إن أول فرصة ضاعت منا كانت مبكرة جدًا وفى أيام «كنيدى» وقتها كانت هناك أزمة الصواريخ فى كوبا . وأمكننا جميعًا احتواء الأزمة بمعجزة . كانت الظروف بالغة التعقيد حتى فى مجال الاتصالات . أتذكر أثناء الأيام الحرجة من الأزمة أننى كنت أقابل «روبرت كنيدى» (شقيق الرئيس «جون كنيدى») فى الساعة الثانية بعد منتصف كل ليلة لنبحث عن مخارج أو

حلول ، وقد اخترنا هذا الموعد للقائنا حتى نضمن السرية لمشاوراتنا . ولم تكن هناك أقمار صناعية للاتصالات كما هو الحال اليوم . وبعد كلٍ واحد من اجتماعاتى مع « روبرت كنيدى » كنت أكتب تقريرى إلى موسكو بخط يدى ثم يأخذه موظف الشفرة فى السفارة ، وبعد أن ينتهى من تشفيره كنا نضرب تليفونا لشركة « وسترن يونيون » للتلغراف فيجىء أحد موظفيها على موتوسيكل ويأخذ البرقية ويسرع بها إلى مكتب الشركة حيث آلة الارسال فيدقها لموسكو ، وتمضى ساعات طويلة قبل أن يجيئنا الرد بنفس الطريقة وبنفس الأسلوب ـ هذا بينما الأزمة تكاد تحبس أنفاس العالم .

المهم استطعنا تجاوز الأزمة . وأدرك « كنيدى » و « خروشوف » باستقراء دروسها أن أى مواجهة بين القوتين الكبيرتين مستحيلة ، وأن عليهما من هنا أن يبدآ السير فى طريق جديد . ولم نستطع مع الأسف أن نتقدم أكثر من خطوة واحدة هى الاتفاق على وقف التجارب النووية فى الفضاء ! » .

ورد « برجينسكى » بعباراته القصيرة التى تعكس تفكيره المنظم والمرتب وكأن عباراته مخروطة بسكين :

ـ « كان صعبًا فى تلك الظروف أن نصل إلى ما هو أكثر لأن سياستكم فى أمريكا اللاتينية بدت أمامنا مثيرة للقلق . وكذلك سياساتكم فى الشرق الأوسط » .

وقال « دوبرينين » :

ـ « ومع ذلك سنة ١٩٦٣ كنا على وشك الامساك بالفرصة مرة أخرى . اتفقنا على كل شىء ولم تبق إلا نقطة واحدة هى نقطة عدد محطات التفتيش فى كل من البلدين . توقعنا أن تطلبوا خمسا ، ثم طلبتم ثمانى ، وبين « خمس أو ثمان » تعثر الاتفاق » .

ورد « برجينسكى » :

ـ « الحقيقة أننى لا أستطيع أن أناقشك فى هذه المسألة . فإنا لم أتابعها ولم أكن هناك » .

ثم يستدرك « برجينسكى » :

ـ لكنى أستطيع أن أناقشك فى مسألة أخرى هى قراركم بالدخول إلى أفغانستان ! » .

وتمتم « دوبرينين » بما معناه إن ذلك كان قراراً انفعالياً !

والتقطها « برجينسكى » على الفور قائلاً :

ـ « لقد كنت أنا يومها مستشار الأمن القومى فى البيت الأبيض ، ووجدت أمامى جيشًا سوفيتيًا يدخل إلى أفغانستان ؟ كيف كان لى أن أعرف « أنها انفعال » وأنه كان قراراً اتخذته القيادة السوفيتية على عجل ، ولم يكن يعلم به غير « بريجنيف » الذى اتخذه بالتشاور مع اثنين فقط من زملائه (« كوسيجين » و « اندروبوف ») ـ بعد طلب من الماريشال « أوستينوف » وزير الدفاع ؟!.

من موقعى فى البيت الأبيض كان علىّ أن أقدم تقدير موقف لرئيس الولايات المتحدة باعتبارى مستشاره للأمن القومى .

وكان تقديرى أنها خطوة محسوبة لها ما وراءها . أى أنها جزء من مخطط كامل موجه بعد أفغانستان إلى الخليج .

وقد تصرفنا على هذا الأساس ، ولم يكن لدينا خيار . »

* * *

وقال « دوبرينين » :

ـ « الحقيقة أن منطق القوة أخذنا جميعًا وقد خدعنا أنفسنا . كلنا كنا على استعداد لأن نخدع أنفسنا . سوف أروى لكم قصة :

فى أواخر الستينات كان « ليندون جونسون » رئيسًا للولايات المتحدة . وكان

نائبه هو «هيوبرت همفرى» . وذات يوم فى هذه الفترة قام وزير الدفاع السوفيتى المارشال «أندريه جريتشكو» بزيارة لواشنطن التقى خلالها بنائب الرئيس . وجلس وزير الدفاع السوفيتى ونائب الرئيس الأمريكى متجاورين على دعوة عشاء ، وشرب الاثنان وراحا يتحدثان فى كل شىء ولا شىء . وقادهما الحديث إلى الصيد ، وقال وزير الدفاع السوفيتى لنائب الرئيس الأمريكى أن «أمتع» تجارب الصيد هى صيد الخنازير البرية فى غابات روسيا وأنه لابد أن يجرب هذه «المتعة» بنفسه . وانتهى العشاء ، وانتهت زيارة وزير الدفاع السوفيتى إلى واشنطن واعتبرنا أنه مشهد بلغ نهايته بين الرجلين . ولكن يبدو أن نائب الرئيس – «همفرى» – أخذ حديث السهرة والشراب جداً ، فذهب إلى الرئيس «جونسون» يقول له : «إن وزير الدفاع السوفيتى دعاه إلى روسيا» . ووافق الرئيس على الفكرة واتصل بى «همفرى» يقول لى «إنه قرر أن يقبل دعوة المارشال «جريتشكو» وهو ينتظر تحديد موعد» . وبعثت ببرقية إلى وزير الدفاع أقول له فيها «إن نائب الرئيس قرر أن يقبل دعوتك لزيارة موسكو» . وبعث «جريتشكو» إلىّ ببرقية يقول فيها «أية دعوة»؟ إننى لم أوجه إليه شيئًا ! وعاودت الاتصال بموسكو أقول لهم «إن نائب الرئيس فهم أن هناك دعوة وأنه وقد بلغت الأمور هذا الحد فلم يعد هناك مفر من توجيه دعوة رسمية» . واجتمع المكتب السياسى وناقش ووافق وتلقى «همفرى» من «جريتشكو» تأكيدًا للدعوة ، وتحدد موعدها بالفعل وسافر «همفرى» . وذهب الاثنان إلى رحلة لصيد الخنازير البرية . وكان عليهما ذات ليلة أن يتناولا العشاء فى استراحة صيد ثم يخرجا معا بعد منتصف الليل لصيد الخنازير البرية . وعلى مائدة العشاء أفرط الاثنان فيما يبدو فى الطعام والشراب وناما . وفى الصباح استيقظ المارشال «جريتشكو» مبكرًا وتنبه لما حدث وطلب من مجموعة قناصة مرافقة له أن تصطاد له خنزيرًا بريًا ضخمًا بأى ثمن وأن تجىء به إلى استراحة الصيد قبل أن يستيقظ نائب الرئيس الأمريكى . وعندما استيقظ «همفرى» كان هناك خنزير برى مضرج بدمه أمام الاستراحة ، وقيل له إن هذا هو الخنزير الذى اصطاده !

وراح «همفرى» يهرش رأسه ليتذكر ما إذا كان أمسك بالأمس بندقية وأطلق منها رصاصة أصابت ذلك الخنزير البرى الضخم !

وبعد قليل اقتنع «همفرى» بأنه «لابد» فعل هذا وهو نصف منتش ونصف نعسان ! وعندما جاء الوقت ليسافر «همفرى» عائدًا إلى بلاده وجد على طائرته رأس الخنزير البرى «الذى اصطاده» محنطا وجاهزاً للسفر معه ...»

ويستغرق «دوبرينين» فى الضحك وهو يقول «كان المشهد المثير وقتها مشهد نائب الرئيس العائد إلى واشنطن والنازل من الطائرة ووراءه رأس الخنزير البرى المحنط ، وعدسات الصحافة والتليفزيون تلتقط الصور له مع «الوحش الذى استطاع بطلقة واحدة أن يرديه قتيلاً»

هكذا كان خداع النفس فى علاقاتنا .»

وكانت تلك فترة مقدمات «الوفاق» !.

* * *

وسحبت الحوار من منطقة الفرص الضائعة ومنطق القوة الذى أخذ الجميع وخداع النفس – إلى منطقة أخرى .

قلت :

– «المهم .. أين نحن ؟ – ما هو الوضع فى الاتحاد السوفيتى الآن ... وفى كل أوروبا الشرقية ؟».

ورد دوبرينين :

– «بالنسبة لما يجرى فى الاتحاد السوفيتى هناك الآن كلمتان تلخصان كل شىء : «البيروسترويكا» و«الجلاسنوست» . والبروسترويكا معناها بالضبط إعادة البناء . والجلاسنوست معناها الحرفى «الحديث بصوت عال» ، أى المصارحة .. مصارحة النفس والآخرين »

وقال لى «برجينسكى» :

ـ «إننى أستطيع أن أقول لك شيئًا عما يجرى فى أوروبا الشرقية . هناك انتقلنا من مبدأ «بريجنيف» إلى مبدأ «سيناترا» . »

ولم يبد علىّ أننى فهمت ، واستطرد « برجينسكى » موضحاً :

ـ كانت الفكرة الأساسية فى مبدأ «بريجنيف» هى حق الاتحاد السوفيتى فى التدخل ولو بالقوة إذا ما حدث تهديد ـ من وجهة نظره ـ للنظم الداخلية أو الاجتماعية لأى بلد من بلدان أوروبا الشرقية ـ ذلك هو المبدأ الذى تذرعوا به فى التدخل فى تشيكوسلوفاكيا مثلاً .

أما مبدأ «سيناترا» فلعلك تذكر أشهر أغانى «فرانك سيناترا» وهى أغنية «فى طريق وحدى» Going my way ـ الآن كل بلد فى أوروبا الشرقية يسير فى طريقه وحده» .

وألححت على « برجنيسكى » أن يقول لى رأيه وليس رأى « فرانك سيناترا » وكان رأيه كما يلى :

ـ الحقيقة هى أن هناك نقطة أساسية تستوقفنى ، وهى :

أن تأثير أى دولة عظمى يرتبط بعدة عوامل للقوة ، وهى بالترتيب :

١ ـ القوة الاقتصادية .

٢ ـ قوة التماسك الاجتماعى .

٣ ـ قوة التلاقى على هدف قومى محدد .

وأخيراً :

٤ ـ تجىء القوة المسلحة وامكانياتها .

وفى الوقت الراهن ، ولسنوات قادمة ، فإن عناصر القوة الثلاثة الأولى ليست متوافرة لدى الاتحاد السوفيتى ، أو هى على الأقل فى حالة تفكك وسيولة .

وبالتالى فإن عنصر التأثير الوحيد الباقى له كدولة عظمى ـ بل كواحدة من

القوتين الأعظم ـ هو عنصر القوة المسلحة . والنقطة الأساسية التى تستوقفنى ترتيبًا على ذلك إذن هى : «هل أن الاتحاد السوفيتى جاهز فعلاً لعالم جديد من السلام ، وبلا حروب ساخنة أو باردة . وإذا كان ذلك فما هى وسيلته للتأثير فى تشكيل هذا العالم الجديد ؟ ـ إذا لم تكن القوة العسكرية ـ وجودها أو ظلها ـ فما هى وسيلتهم للتأثير فى شكل السلام الذى أشعر أنهم يريدونه فعلاً ؟!» .

وطال الحوار وتشعبت أطرافه حتى بعد أن دقت الساعة فى موسكو منتصف الليل ثم تجاوزته !.

* * *

وحين عدت إلى فندق «سافوى» الذى كنت أنزل فيه أثناء إقامتى فى العاصمة السوفيتية ، وهو فندق من فنادق الانفتاح الجديد فى الاتحاد السوفيتى تديره مجموعة فنلندية ـ جلست أكتب ملاحظاتى ومذكراتى عن نشاطى اليومى فى الاتحاد السوفيتى . ووجدتنى أتوقف طويلاً أمام وصف «دوبرينين» لما يجرى فى الاتحاد السوفيتى : «البيروسترويكا» (إعادة البناء) ، و «الجلاسنوست» (الكلام بصوت عال) .

ساءلت نفسى طويلاً : ماذا وراء الألفاظ والشعارات ؟.

وفى ساعات الفجر الأولى بدت لى الاجابة شديدة الوضوح تؤكدها التجربة الحية لأسبوعين كاملين فى الاتحاد السوفيتى :

- «البيروسترويكا» أى إعادة البناء، معناها ببساطة أن ماهو قائم غير قادر على البقاء . أصابه التصدع على الأقل ولم يعد مجرد الترميم يكفى ، بل أصبحت مقتضيات الأمان تملى إملاء مهمة إعادة بنائه .

- «الجلاسنوست» أى الكلام بصوت عال، ترتيب منطقى على ماسبق مؤداه أن الموقف يفرض الكلام بصوت عال ، ومصارحة النفس والآخرين بخطورة الحالة التى آل إليها البناء الذى يعيشون فيه بما أصبح يملى مهمة إعادة بنائه .

أى أن هناك صلة عضوية بين اللفظين والشعارين . أحدهما يترتب على الآخر . الصدع خطير فى بناء الاتحاد السوفيتى ، وبما أصبح ضروريًا معه أن تكون «البيروسترويكا» .

ونتائج الصدع لم يعد ممكنًا اخفاء مخاطرها ، وبما أصبح ضروريًا معه أن تكون «الجلاسنوست» .

وقبل أن آوى إلى فراشى استعدادًا ليوم جديد مددت يدى إلى مفتاح جهاز التليفزيون فى الفندق الانفتاحى ، وهو مضبوط على محطة الأخبار الأمريكية الشهيرة «سى . إن . إن» (وهذه الصلة بالعالم الخارجى هى الميزة الوحيدة لفنادق الانفتاح فى موسكو) — وكانت لا تزال تعرض صور زلزال «سان فرانسسكو» .

وكنت أتابع أخبار زلزال «سان فرانسسكو» لأسباب إنسانية .

وخطر لى — فى تلك الساعة من الفجر — أن ما شهدته فى الاتحاد السوفيتى خلال أسبوعين كاملين هو — من أسباب مختلفة — زلزال أكبر وأشد جسامة وهولا .

....

....

وحين عدت إلى القاهرة كان أول ما فعلته حين دخلت مكتبى أن مددت يدى إلى موسوعة العلوم الصادرة عن «ماجروهيل» أبحث تحت مدخل الزلازل عن أبسط تعليل لها ، وتوصلت إلى ما يلى :

«إن الزلازل اهتزازات عنيفة ترج منطقة من سطح الأرض بعنف مدمر ، وقد تصل قوة هذه الاهتزازات إلىحد اصابة سطح الأرض بالتشقق والانكسار ، وذلك يحدث نتيجة لتحرك واحتكاك كتل جيولوجية ضخمة فى باطن الأرض ، أو نتيجة لنشاط بركانى تصدر عنه حرارة زائدة أو غازات أو اشعاعات تتسرب مندفعة إلى فجوات واسعة بين هذه الكتل .. وعندما يجىء

الزلزال فإن هزة خفيفة تمهد له ، وبعد أن يقع الزلزال الكبير فإن هزات لاحقة لابد أن تعقبه ، وبعضها يمكن أن يكون فى قوة الزلزال الكبير وخطره . » .

كان هذا ما حدث فى كاليفورنيا — طبيعيًا .

وكان هو نفسه — وعلى نطاق أكبر وأوسع — ما حدث فى الاتحاد السوفيتى فكريًا واجتماعيًا واقتصاديًا ، وبالتالى سياسيًا ، مع العلم بأن الأمم العظيمة تستطيع أن تعيش الزلازل ، وتعيش بعدها !.

ولسنوات طويلة — أراد العالم أو لم يرد — فإن الزلزال السوفيتى واصل إليه ومؤثر فيه . كما أن هزاته اللاحقة تستدعى الكثير من اليقظة والاستعداد .

وهكذا أصل إلى حديث الزلزال السوفيتى .

ثلاث صور للأحوال فى

الاتحاد السوفيتى اليوم

- الصورة من واشنطن
- من اجتماعات موسكو
- من حياة كل يوم فيها

الوطنية النائمة

فى أحضان الدين

وفوقها العلم الشيوعى !

(٢)

سألنى الصديق القديم الدكتور « ايجور بيلاييف » نائب رئيس تحرير جريدة « برافدا » والمسئول فيها عن شئون آسيا وأفريقيا ـ وكان قد تفضل كريما ومعه جمع من الأصدقاء باستقبالى فى مطار « شيرمتييفو ٢ » عند وصولى إلى موسكو :

ـ« متى كانت آخر زيارة لك إلى بلادنا ؟» .

وقلت على استحياء محاولا مداراة قصورى : «إننى زرت الاتحاد السوفيتى لأول مرة فى نوفمبر سنة ١٩٥٧ . ومن تلك السنة ـ ١٩٥٧ ـ إلى سنة ١٩٧٠ عدت إليه تسع عشرة مرة . ثم انقطعت من سنة ١٩٧٠ حتى اليوم ـ ١٩٩٠ تقريبا ـ والآن بعد عشرين سنة أعود للزيارة العشرين . وهى مفارقة غريبة فى الأرقام .»

ورد « ايجور » بلغته العربية التى تجمع بين وقع اللغة الروسية ولهجة أهل الشام ، ومنها كان أستاذه فى اللغة العربية فى معهد اللغات الشرقية : « هذا غياب طويل .. طويل جدا » . وسلمت له بصدق ملاحظته وحقه فيها ، وأضاف هو قائلا : « فى هذه السنوات العشرين حدثت أشياء كثيرة ، تغيرت أحوال ومازالت تتغير ! » ـ وحاولت أن أدقق فى عبارته .. مضمونها ، ونبرتها ، وتطلعت إلى ملامح وجهه . ولكنها جميعا كانت محايدة .. الكلمات والنبرة والملامح . تقرير حقيقة خاليا من أى « حكم قيمة » ـ كما يقولون . تقرير تعرف منه « حالة » دون « رأى » معين فى هذه « الحالة » !.

ولم أشأ أن أترك « ايجور » وشأنه . وسألته : « ولكنك لم تقل لى إذا كانت هذه التغييرات التى حدثت فى غيابى إلى أحسن أو إلى أسوأ ؟ » ـ وكان رده محايدا أيضا : « ظننتك قادما لترى بنفسك » .. وكانت متابعة السؤال بعد ذلك تجاوزا ينتقل به من حد الاستفهام إلى حد الاحراج ، وهو مالم يكن قصدى !

كان تقرير « ايجور بيلاييف » على قصره الشديد محايدا ـ ولكنى لم أكن فى مثل حياده . وذلك ذنب اعترف به دون خجل وأظنه من طبائع البشر . فكلهم له فى كل مسألة رأى مسبق ، وكلهم له فى كل أمر ميل وهوى . بل لعلى أكثر من ذلك أقول إن العقل فى حد ذاته اختيار . والاختيار بدوره موقف يتفق أو يختلف ولكنه لا يكون محايدا . إلا إذا كان ذلك املاء ظروف تفرض الحياد لدواع تقتضيه . وربما قلت إنه كان لى باستمرار رأى فى التجربة السوفيتية ، وكنت أفرق دواما بين هذا الرأى فى التجربة نفسها وبين سياسة الاتحاد السوفيتى فى العالم ، وبخاصة ازاء العالم الثالث ، وبنوع أخص تجاه القضايا العربية . فأنا أعرف مدى تأييد الاتحاد السوفيتى لمصر ـ على سبيل المثال ـ وحجم المساعدات الاقتصادية والعسكرية التى قدمها لها ، والشواهد قائمة فى مئات المشروعات الحيوية التى تعيش عليها مصر حتى هذه اللحظة ، وفى مقدمتها السد العالى وكهربة الريف بكل نتائجها الاقتصادية الاجتماعية الضخمة . كما أنها قائمة فى حقيقة أن كل حروب مصر الحديثة ـ من سنة ١٩٥٦ إلى سنة ١٩٧٣ ـ جرت جميعا بسلاح سوفيتى لم يزد ما دفعته مصر فيه كله على بليون دولار واحد ، ولو أنها اشترته من الغرب لزاد ثمنه عشرات المرات ـ ولكن تلك قضية أخرى ، ولا ينبغى الخلط بين القضايا خصوصا إذا كان الهدف هو التعرف على أحوال المجتمع السوفيتى من الداخل ، بصرف النظر عن السياسات الخارجية للدولة السوفيتية وما أثر فيها من اعتبارات وتقديرات !

ولقد أتاحت لى الظروف أن أناقش التجربة ـ فيما مضى ـ مع كثيرين من قادة الاتحاد السوفيتى ، وبينهم « نيكيتا خروشوف » و « ليونيد بريجنيف »

و « ميخائيل سوسلوف » و « اليكسى كوسيجين » و « يورى اندروبوف » و « أندريه جروميكو » وعشرات غيرهم . ولم يكن ما أقوله خصوصا فى مجال الحريات الإنسانية وفى حقوق الأفراد بما فيها حق الملكية ، وفى الموقف من الدين ، وفى تجاوزات السلطة ـ يعجبهم ، ومع ذلك فقد سمحت لنفسى أن أقوله لهم وأكتبه ـ ولم يكن أى منهم بعد ذلك على استعداد لأن يصدق أن هناك من يستطيع أن يكون ناقدا إلى هذا الحد للسياسة السوفيتية فى الداخل ـ وفى نفس الوقت يكون مقدرا إلى هذا الحد للسياسة السوفيتية فى الخارج .

ومع ذلك فلقد كان تصورى حتى سنوات قريبة أن الاتحاد السوفيتى يمثل قصة نجاح اقتصادى ضخم ، وإن كانت تكاليفه الإنسانية فادحة الثمن .

وحين جاء « اندروبوف » إلى القمة فى الاتحاد السوفيتى بعد وفاة « بريجنيف » فى نوفمبر سنة ١٩٨٢ ، وبدا أنه يعطى أولوية كبرى لتصحيح أوضاع الداخل ـ فلقد توهمت ، وربما توهم غيرى ـ أن هناك نوعا من التوازن يعود إلى التجربة السوفيتية ، أى أن جانبها الإنسانى على وشك أن يعدل نفسه ليتلاءم مع المبادئ الأصلية للثورة السوفيتية ومع نجاحها الاقتصادى كما كان يبدو وقتها .

وعندما وصل « جورباتشوف » إلى القمة فى الكرملين فى مارس سنة ١٩٨٥ ـ ثم اضطر اضطرارا إلى طرح سياسة « البيروسترويكا » (اعادة البناء) و « الجلاسنوست » (الحديث بصوت عال أو المصارحة) ـ كانت المفاجأة الكبرى . فقد ظهر أن الخلل الاقتصادى الاجتماعى فى التجربة السوفيتية لا يقل خطرا عن التجاوزات الإنسانية والحقوقية (دستورا وقانونا) فى هذه التجربة التى استطاعت ـ وهذه ظاهرة تدعو إلى اطالة التفكير والتأمل ـ حقبا طويلة أن تثير وتلهم كتلا عظيمة من البشر وتشد خيالهم !

ولقد رأيت « ميخائيل جورباتشوف » يتحدث فى قاعة البرلمان السوفيتى . وكان إلى جانبى مترجم ينقل إلىّ أقواله . وسمعت « جورباتشوف » يقول :

« عندما جئت إلى السلطة وجدت الآناء السوفيتى على النار يغلى ، وتصورت أن المطلوب هو رفع الغطاء عن الاناء لتنفيس البخار . ولكن ما رأيته داخل الاناء كان أصعب مما تصورت . ولم يكن فى مقدورى أن أعيد الغطاء والتظاهر بأننى لا أسمع ولا أرى شيئا ، وأنما وجدت أن واجبى يحتم على أن أصارح الشعب السوفيتى بالحقائق ، وأن أدعوه ـ وهو وحده القادر ـ إلى المشاركة فى مواجهة الخطر ! » .

والواقع أنه كان فى استطاعتى أن أفهم « جورباتشوف » من حقيقة أننى مثله فوجئت من أول نظرة على اناء المجتمع السوفيتى الواصل إلى درجة الغليان والمعبأ بأكدار وأحزان قاتمة ومعتمة ! .

كانت لى ، ومنذ زمن طويل كما سبق وقلت ـ تحفظات وانتقادات .

وبعد موت « بريجنيف » كانت صحف الغرب ملأى بالتوقعات السوداء ، وكنت مترددا فى التصديق .

ولقيت عددا من الأصدقاء السوفيت فى فترة حكم « تشرنينكو » . وبينهم الدكتور « فاسيليف » وهو عضو بارز فى كلية الاستشراق بجامعة موسكو (وأنا الآن فى حل من ذكر اسمه) وكان حديثهم . وحديثه بالذات ، معى صريحا بمقدار ماكان مخيفا .

واطلعت على تقارير كثيرة كان معظمها فى نفس الاتجاه المتطير بالشؤم .

* * *

وتحاورت مع أصدقاء أثق فى أحكامهم زاروا الاتحاد السوفيتى بعد أن بدأت الحقائق تفرض نفسها على الجميع ، وكانت شهاداتهم جميعا مدعاة لكثير جدا من القلق والهم .

واتذكر صديقا عزيزا وغاليا ظل سنوات طويلة فى عداد « المؤمنين » . وبسبب إيمانه قضى زهرة شبابه فى سجون مصر عبر عهود مختلفة . ورأيته يجلس

أمامى بعد عودته من زيارة للاتحاد السوفيتى حائرا لايعرف ما يقول ولا عن أى نقطة يبدأ . ثم غلبه الانفعال وإذا هو يقول « إننى لا أصدق أننى أضعت عمرى لكى أرى فى النهاية ما رأيته » !

وقال لى صديق آخر وهو من أذكى من أعرف فى مصر : « ألست ذاهبا بنفسك لترى » ؟ وقلت : « نعم » . وقال : « لى عندك رجاء .. هم هناك فى أزمة عنيفة وهم يحتاجون إلى كل رأى . إذا كان فى استطاعتك أن تقول لهم شيئا فلا تتردد ولكن حاذر قدر ما تستطيع أن يحسوا فيما تقول بأننا الآن نعطيهم درسا أو أننا رأينا مبكرا ما رأوه هم الآن متأخرين . أنك سوف تجدهم فى حيرة وسوف يحدثونك بصراحة ، ولك أن تحدثهم بصراحة ولكن من موقع الصديق . » .

وكذلك فعلت ، أو حاولت ـ رغم أن الحقائق التى رأيتها متفجرة أمامى كانت مثل قنابل من العيار الثقيل !

وكان أول ما سمعته عندما وصلت إلى فندق «سافوى» ، وجاء أحد الأصدقاء من أكاديمية الاستشراق يرحب بى ـ نكتة تشيع مثلها عشرات ومئات فى موسكو .

تقول النكتة أن « نيكتيا خروشوف » (زعيم الاتحاد السوفيتى من سنة ١٩٥٦ إلى سنة ١٩٦٤) التقى بخلفه « ليونيد بريجنيف » (زعيم الاتحاد السوفيتى من سنة ١٩٦٤ حتى سنة ١٩٨٢) فى السماء بعد أن مات الاثنان . وكانت أصداء ما يجرى فى الاتحاد السوفيتى وفى مقدمته «البيروسترويكا» (اعادة البناء) تصل إليهما حيث هما فى العالم الآخر !.

وتقدم « خروشوف » من « بريجنيف » يقول له : « ليونيد اليشا » (وهم فى الاتحاد السوفيتى يلحقون اسم الأب باسم الابن تكريما وإعزازا) « هل بنيت شيئا عندما كنت هناك » ؟ ورد « بريجنيف » بالنفى وبأنه لم يبن شيئا . وجاء الدور على « بريجنيف» ليسأل فسأل « خروشوف » قائلا : « نيكيتا سيرجيفتش »...

« وأنت ؟ هل بنيت شيئا عندما كنت هناك » ؟ ورد « خروشوف » قائلا : « أبدا » .

وبدت الحيرة على وجه « خروشوف » ثم إذا هو يسأل « بريجنيف » : « إذن فما هو ذلك الذى يعيدون بناءه » ؟!

* * *

وحتى الآن كنا فى حديث الانطباعات . وآن أن ننتقل منه إلى حديث الصور ، وأكتفى منها بثلاث لعلها قادرة على أن تحيط بأبعاد الأزمة التى تمسك بخناق الاتحاد السوفيتى الآن :

الصورة الأولى : صورة الموقف الاقتصادى ـ الاجتماعى وتأثيره على مركز « جورباتشوف » كما تراها أعلى أجهزة المعلومات التى تخدم صانع القرار الأمريكى . وهذه الصورة يعرضها تقرير سرى اشتركت فى كتابته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ووكالة المخابرات العسكرية ، وقدم لمجلس الأمن القومى الأمريكى فى البيت الأبيض استعدادا لرئاسة « جورج بوش » للولايات المتحدة . ورأى الرئيس الأمريكى الجديد ارساله إلى لجنة الشئون الخارجية والأمن القومى للكونجرس . وتفضل أحد الأصدقاء من أعضاء هذه اللجنة فأرسل إلىّ ـ بصورة شخصية ـ نسخة منه قبل أسابيع ، ويقول التقرير فى مقدمته مايلى : « إن خطط جورباتشوف لتحريك الاقتصاد السوفيتى المتجمد وصلت إلى مأزق سنة ١٩٨٧ بسبب مشاكل متعددة بينها عوامل الجو ، واختناقات النقل ، والارتباكات الناشئة عن ادخال اصلاحات اقتصادية . وكانت النتيجة النهائية أن النمو الذى تحقق فى الاقتصاد السوفيتى سنة ١٩٨٧ كان أقل من واحد فى المائة ، وهى نسبة نمو تعيد إلى الأذهان ماكان يحدث فى عصر الركود أيام « بريجنيف » .

ولقد حاول « جورباتشوف » ادخال نظم لمراقبة الجودة فى الصناعة طبقا

لبرنامجه المعروف « جوسبريمكا » وركز على ١٥٠٠ مؤسسة صناعية ، ولكن هذه النظم الجديدة أدت إلى ارتباك فى الإنتاج خصوصا فى الأشهر الأولى من السنة . ولقد أدى نظام اصلاح الأجور الجديد وتخفيض أعداد العاملين وتغيير القواعد المالية ـ إلى تعقيد مهمة المديرين وجعلت تصرفاتهم مشوبة بطابع الارتباك . وهكذا لم يزد نمو القطاع الصناعى على ١٫٥٪ ، وأما بقية القطاعات فإن التوسع فيها سنة ١٩٨٧ كان شبه معدوم . كما هبط الإنتاج الزراعى بمعدل ٣٪ عن العام السابق ، وكانت لهذا نتائج خطيرة .

ومن الواضح أن « جورباتشوف » يحتاج إلى تحريك اقتصاد بلاده بما يضمن نسبة أعلى من النمو ، وبما يحقق توافر سلع استهلاكية لأسواق جائعة بشدة إلى مثل هذه السلع . وعليه بالتأكيد أن يتوصل إلى برنامج كامل للتحديث . ومشكلته أن مثل هذا البرنامج يحتاج إلى استثمارات كثيفة ليس أمامه سبيل للحصول عليها غير الخيارات التالية :

١ ـ أن يقتطع من الانفاق الحربى ، فالمخصصات العسكرية تحصل وحدها مباشرة على مابين ١٥ إلى ١٧٪ من مجمل الناتج القومى للاتحاد السوفيتى ، عدا مايصل إليها بطريق غير مباشر من قطاعات أخرى مثل قطاع الآلات الثقيلة ، وقطاع التشييد ، وقطاع الابحاث العلمية ـ والمشكلة فى هذا الخيار هى هل تقبل القوات المسلحة مثل هذا الاقتطاع من ميزانيتها ؟!.

٢ ـ أن حوالى خمسين فى المائة من الاستثمارات السوفيتية الحالية مخصصة للطاقة والزراعة ، فإذا استطاع « جورباتشوف » أن ينقل من هذه الاستثمارات جزءا مؤثرا يوجهه إلى الصناعات الاستهلاكية لتوفير السلع اللازمة للشعب ، فإن ذلك قد يخفف من حدة الأزمة ـ والمشكلة ، فى هذا الخيار الثانى ، أن عملية نقل هذه الاستثمارات من الطاقة والزراعة يمكن أن تؤدى إلى مشاكل خطيرة تمس مجمل الاقتصاد السوفيتى .

٣ ـ الحصول على موارد خارجية عن طريق التجارة أو استيراد التكنولوجيا ،

وهذا خيار تقوم دونه عقبات لاتجعله ميسرا فى الظروف الحالية .

والنتيجة أن المجتمع السوفيتى سوف يواجه فى السنوات القادمة توترات شديدة تؤثر حتى على القيادة السوفيتية نفسها . ويضاعف من أثر هذه التوترات أن البيروقراطية السوفيتية تشعر باحباط شديد نتيجة لفقدان بعض امتيازاتها ، إلى جانب أن قيادات القوات المسلحة تنتابها الهواجس من احتمالات المساس بميزانيتها أو امتيازاتها .» .

ثم يمضى التقرير فيشير إلى أثر الوضع الاقتصادى على تفاقم مشاكل القوميات وإلى زيادة فجوة الشك بين الشعب والحزب والحكومة ، وإلى تصاعد حركة الاحتجاجات تحت أعلام مختلفة !

والصورة الثانية أكثر ظلمة ، وهى هذه المرة رسمية ومن داخل الاتحاد السوفيتى ، بل ومن داخل دوائر صنع القرار . فقد تواجدت فى موسكو مع انعقاد مؤتمر تحت عنوان « البيروسترويكا والعالم الثالث » ، وحرصت على حضور بعض جلسات هذا المؤتمر ، وبالذات جلسة أخيرة غير رسمية ـ بلا أوراق عمل وبلا محاضر ـ رأى فيها السوفيت أن يضعوا بعض الحقائق عن أحوالهم أمام أصدقائهم فى العالم الثالث حتى يفهموا فلا يسرفوا فى اللوم والعتاب !ـ وكان هناك اثنان من المتحدثين الرسميين ، أولهما نائب وزير العدل الدكتور « فيشنسكى » ، والثانى هو الدكتور « جرانوفيتش » رئيس أكاديمية الاقتصاد العليا للاتحاد السوفيتى .

وقد بدأ نائب وزير العدل ، وركز فى حديثه على النقاط التالية :

- « إن جهاز الدولة والحزب ظل لحقب طويلة يمارس سلطته خارج القوانين وخارج الدستور ، وقد جاء الوقت لتأسيس دولة قائمة على القانون .» .
- « لقد كانت فى الاتحاد السوفيتى غابة « مما يسمى بالقوانين » ، وكمثال لذلك فإننا أحصينا أنه فى سنة ١٩٧٠ كان كل قانون يصدر يحتاج إلى

خمسة قوانين إضافية من مجلس السوفيت الأعلى تجعله قابلا للتطبيق . ثم يحتاج إلى ٦٠ قرارا توضيحيا من مجلس الوزراء ، إلى جانب عدد لايحصى من اللوائح المنظمة للتصرفات . وكان هذا الكم الهائل من القوانين الأصلية والاضافية والقرارات واللوائح أكبر من أن يتعامل معه أحد .» .

- « إن دولتنا لم تشهد أى تطور فى المجتمع المدنى منذ قيامها ، ولابد الآن من قوانين تضمن حق الشعب فى أن يقول رأيه بما فى ذلك حقه فى أن يقول « لا » عند اللزوم . ومنذ قامت « البيروسترويكا » حدث انفجار فى التجمعات المدنية لايمكن احصاؤه ، وهناك من ينادون بحل هذه التجمعات ، وليس ذلك مطلوبا وإنما المطلوب هو التقنين .» .
- « إن الاقتصاد السوفيتى كان خارج القانون وأحيانا فوقه ، والاقتصاد يحتاج الآن إلى استقرار حقوقى . وكان « لينين » هو القائل بأن « الاقتصاد تستحيل إدارته بالأمر » . وهذه المشكلة تزداد تعقيدا إذا كان هذا الاقتصاد مطالبا باستيعاب التكنولوجيا الحديثة والاستجابة مع حركة السوق !» .
- إن القوانين لم تكن تقدم أى ضمان للملكية ، ونحن الآن فى حاجة إلى تجديد علاقات الملكية بأشكالها المختلفة . ولقد جرى تشويه فكرة الملكية لسنوات طويلة ، وآن أن نعطى لها احترامها بالقانون دون خوف . فملكية الدولة سنة ٨٨ وصلت إلى ٨٨٪ من كل شىء ، فى حين لم تزد الملكية الفردية عن ٠,٠٣٢٪ والباقى داخل فى الملكية التعاونية . والحقيقة أن احتكار الدولة للملكية أضاع من الأفراد تماماً كل حافز إلى المبادرة .» .

....

....

وبعد نائب وزير العدل ، وقف رئيس أكاديمية الاقتصاد العليا ، وبدوره ركز حديثه على النقاط التالية :

• « إن مركزية التخطيط والإدارة أدت إلى كوارث اقتصادية ، فلدينا الآن أكثر من مائة ألف مؤسسة كبيرة فى الصناعة والزراعة تقدم ٢٨ مليون نوع من المنتجات ، ولايمكن التخطيط لهذا كله أو إدارته مركزيا . » .

• « إن التخطيط والإدارة المركزية على هذا النطاق الواسع أدت إلى هبوط فى نوعية السلع المنتجة لم يضعف امكانات التصدير فحسب ، ولكن صد المستهلك السوفيتى نفسه الذى فقد ثقته فى المنتج السوفيتى ، وراح يبحث عن أى وسيلة للحصول على سلع من الخارج . » .

• « إننا خرجنا بعيدا عن حركة السوق العالمية ، وذلك يعكس نفسه فى سعر صرف الروبل . فبينما السعر الرسمى هو أن الروبل يشترى دولارا ونصفا ـ فإن الحقيقة الواقعة أن الدولار الواحد يشترى ١٢ روبلا ، وهذا أدى إلى سوق ظل واسعة . » .

• «إن التقديرات مختلفة عن حجم التعاملات فى سوق الظل (السوق السوداء) فبينما بعض الحسابات تذهب إلى تقديرها فى حدود ١٠٠ بليون دولار ـ فإن هناك تقديرات أخرى تصل بها إلى ٢٨٠ بليون دولار ، وأيا كان الرقم الصحيح فإن القضية خطيرة . » .

• « إن الحقيقة التى يجب أن نقولها مع الأسف ـ لرفاقنا فى العالم الثالث ـ هى أن لدينا ١٢ مليون عاطل أو شبه عاطل فى الاتحاد السوفيتى . » .

ولعل رئيس أكاديمية الاقتصاد أحس بأن سامعيه من العالم الثالث أصيبوا بنوع من الصدمة وهم يستمعون إليه ـ فاستدرك يقول :

ـ « إننى أريد أن ألح عليكم فى ألا تنسوا أن الرأسمالية واجهت أزمتها ووصلت إلى حالة انهيار كامل سنة ١٩٢٩ » !

وهو قول صحيح على أى حال ...

* * *

وتبقى **الصورة الثالثة** ، وهى المشاهد التى يقابلها أى زائر لموسكو فى شوارعها وأسواقها وجامعاتها ونواديها وفنادقها ومتاحفها وكنائسها .. إلى آخره .

ولا أتجاوز إذا قلت إن أول انطباع يشعر به الزائر لموسكو هو أنه يلتقى بأمة عظيمة بالمعيار التاريخى للأمم العظيمة ، وهو قدرتها على الاحتمال .

فهذه أمة تحملت مسئولية تحقيق حلم إنسانى ضخم ، وإن لم يحقق حلمها لسوء حظها مطالبه ! ثم أن هذه الأمة تعرف أنها كانت صانعة النصر الحقيقى فى الصراع مع النازية ، وأنها دفعت فى هذا النصر حياة ٢٠ مليونا من شبابها . وأخيرا فإن هذه الأمة تعرف أنها بعد تحقيق النصر أفلت من يدها وعده . فالأمم لاتضحى فى الحروب لكى تضع أكاليل الغار على رؤوس الزعماء ، وإنما تضحى الأمم رجاء فى غد أفضل . وبالنسبة للأمة الروسية فإن هذا الغد الأفضل لم يجئ بعد .

وفى حديث مع أحد الأساتذة السوفيت فى حديقة أكاديمية الاستشراق الواقعة أمام قلعة الكرملين تماما ، سمعت منه قوله :

ـ « قالوا لنا أن الأمس كان سيئا . وأن المستقبل يحمل فى طياته شيئا أحسن . لكنهم لم يقولوا لنا شيئا عن اليوم .. ما هو وصفه ؟: حسن أو سيىء . كأن هذه اللحظة الحاضرة لاتعنينا وكأنها ليست حياتنا التى نحياها الآن ! » .

نتيجة ذلك أن الزائر لموسكو يشعر أن الأمة العظيمة فى حالة « انكسار نفسى » على مستوى الأفراد .

ثم أن هذا « الانكسار النفسى » على مستوى الأفراد يجد لنفسه متنفسا فى عدة ظواهر ..

• **ظاهرة الارتماء الكامل فى أحضان الدين** على مستوى الرجل العادى . وقد ذهبت وحضرت ـ كمتفرج ـ قداس الأحد فى كنيسة « زاجورسك » العظيمة . كان القداس طبقا للمذهب الأرثوذكسى (أورتا ـ دوكسا : أى العقيدة

• « إن مركزية التخطيط والإدارة أدت إلى كوارث اقتصادية ، فلدينا الآن أكثر من مائة ألف مؤسسة كبيرة فى الصناعة والزراعة تقدم ٢٨ مليون نوع من المنتجات ، ولايمكن التخطيط لهذا كله أو إدارته مركزيا . » .

• « إن التخطيط والإدارة المركزية على هذا النطاق الواسع أدت إلى هبوط فى نوعية السلع المنتجة لم يضعف امكانات التصدير فحسب ، ولكن صد المستهلك السوفيتى نفسه الذى فقد ثقته فى المنتج السوفيتى ، وراح يبحث عن أى وسيلة للحصول على سلع من الخارج . » .

• « إننا خرجنا بعيدا عن حركة السوق العالمية ، وذلك يعكس نفسه فى سعر صرف الروبل . فبينما السعر الرسمى هو أن الروبل يشترى دولارا ونصفا ـ فإن الحقيقة الواقعة أن الدولار الواحد يشترى ١٢ روبلا ، وهذا أدى إلى سوق ظل واسعة . » .

• «إن التقديرات مختلفة عن حجم التعاملات فى سوق الظل (السوق السوداء) فبينما بعض الحسابات تذهب إلى تقديرها فى حدود ١٠٠ بليون دولار ـ فإن هناك تقديرات أخرى تصل بها إلى ٢٨٠ بليون دولار ، وأيا كان الرقم الصحيح فإن القضية خطيرة . » .

• « إن الحقيقة التى يجب أن نقولها مع الأسف ـ لرفاقنا فى العالم الثالث ـ هى أن لدينا ١٢ مليون عاطل أو شبه عاطل فى الاتحاد السوفيتى . » .

ولعل رئيس أكاديمية الاقتصاد أحس بأن سامعيه من العالم الثالث أصيبوا بنوع من الصدمة وهم يستمعون إليه ـ فاستدرك يقول :

ـ « إننى أريد أن ألح عليكم فى ألا تنسوا أن الرأسمالية واجهت أزمتها ووصلت إلى حالة انهيار كامل سنة ١٩٢٩ » !

وهو قول صحيح على أى حال ...

* * *

وتبقى **الصورة الثالثة** ، وهى المشاهد التى يقابلها أى زائر لموسكو فى شوارعها وأسواقها وجامعاتها ونواديها وفنادقها ومتاحفها وكنائسها .. إلى آخره .

ولا أتجاوز إذا قلت إن أول انطباع يشعر به الزائر لموسكو هو أنه يلتقى بأمة عظيمة بالمعيار التاريخى للأمم العظيمة ، وهو قدرتها على الاحتمال .

فهذه أمة تحملت مسئولية تحقيق حلم إنسانى ضخم ، وإن لم يحقق حلمها لسوء حظها مطالبه ! ثم أن هذه الأمة تعرف أنها كانت صانعة النصر الحقيقى فى الصراع مع النازية ، وأنها دفعت فى هذا النصر حياة ٢٠ مليونا من شبابها . وأخيرا فإن هذه الأمة تعرف أنها بعد تحقيق النصر أفلت من يدها وعده . فالأمم لاتضحى فى الحروب لكى تضع أكاليل الغار على رؤوس الزعماء ، وإنما تضحى الأمم رجاء فى غد أفضل . وبالنسبة للأمة الروسية فإن هذا الغد الأفضل لم يجئ بعد .

وفى حديث مع أحد الأساتذة السوفيت فى حديقة أكاديمية الاستشراق الواقعة أمام قلعة الكرملين تماما ، سمعت منه قوله :

ـ « قالوا لنا أن الأمس كان سيئا . وأن المستقبل يحمل فى طياته شيئا أحسن . لكنهم لم يقولوا لنا شيئا عن اليوم .. ما هو وصفه ؟ : حسن أو سيىء . كأن هذه اللحظة الحاضرة لاتعنينا وكأنها ليست حياتنا التى نحياها الآن ! » .

نتيجة ذلك أن الزائر لموسكو يشعر أن الأمة العظيمة فى حالة « انكسار نفسى » على مستوى الأفراد .

ثم أن هذا « الانكسار النفسى » على مستوى الأفراد يجد لنفسه متنفسا فى عدة ظواهر ..

• **ظاهرة الارتماء الكامل فى أحضان الدين** على مستوى الرجل العادى . وقد ذهبت وحضرت ـ كمتفرج ـ قداس الأحد فى كنيسة « زاجورسك » العظيمة . كان القداس طبقا للمذهب الأرثوذكسى (أورتا ـ دوكسا : أى العقيدة

الصحيحة) يجرى بالطبع على خلاف القداس الكاثوليكى ـ دون آلات موسيقية . أى أن صوت المنشدين والمصلين أنفسهم هو الضراعة والدعاء ، وهو الصعود بالغناء إرتفاعاً والنزول به همسا ، وهو التقاء النغم وابتعاده ـ لكن الدموع كانت فى معظم العيون لا أدرى فرط تدين أو فرط حزن !.

• **ظاهرة العودة إلى نوع من الوطنية البالغة حد التعصب** ، وهى وطنية تختلط فيها العقائد الدينية بالعقائد السياسية مع عبادة البطولة المحتجبة .

وعند مدخل « زاجورسك » كان المشهد رمزا معقدا . ساعة معطلة أمام الكنيسة ، وإذا لم تكن معطلة فهى متأخرة عن الساعة الحقيقية ثلاث ساعات ونصفا . وأمامها نصب لضحايا الحرب الوطنية العظمى (الحرب العالمية الثانية) ، والنصب داخل فى سور الكنيسة . وفوق الكل علم أحمر ذو مطرقة ومنجل يخفق مع الرياح .. الوطنية نائمة فى أحضان الدين ، وفوق الاثنين يرتفع العلم الشيوعى !.

وفى موسكو كان هناك طابور يمتد ميلين من المنتظرين لدخول ضريح « لينين » . وأمام ضريح « لينين » بالضبط يقع أكبر محلات موسكو ، وهو محل « جوم » ، والرفوف فيه خالية إلا من بعض زجاجات المشروبات الغازية والأطعمة المعلبة والأقمشة السميكة ومعظمها من أقمشة الستائر ـ وهى ظاهرة تعم روسيا كلها كأن كل نافذة أو باب فيها يتحرق شوقا إلى ستار ينزل عليه !

وفى الميدان الأحمر مابين سور الكرملين ومحل « جوم » مواكب من المتزوجين حديثا جاءوا يباركون زفافهم بالوقوف تحية أمام شعلة الجندى المجهول فى حديقة « فلاديمير » ، ثم يبحثون عن مكان فى الطابور الطويل الذى لايمل انتظار دوره لدخول ضريح « لينين » والقاء نظرة على جسده المحنط فى صندوق زجاجى ـ قبل أن يبدأوا شهر العسل !

• **ظاهرة الشك** ، وهى موجودة أمام كل محل عام فى موسكو ـ مطعم أو فندق أو مسرح يقترب منه الزائر ـ داخلا أو خارجا ـ فيجده محاطا بجموع تتابع

المترددين عليه بنظرة فيها كثير من الاسترابة وأحيانا بعض الغضب ، وإلى جانب نظرات الريبة والغضب آخرون مستعدون لصفقات : « هل معك عملة » ؟ ـ « هل معك تذاكر مسرح » ؟ ـ « هل تريد أن تشترى ساعة » ؟ ـ « كافيار » ؟ ـ أى شىء ؟ ! .

فنادق الانفتاح ـ والدفع فيها بالدولار ـ محظور دخولها على المواطنين السوفيت من الأصل والأساس ، وهو شعور جارح من شأنه أن يجعل أى مواطن غريبا فى عاصمة وطنه .

وأسواق التعاونيات ، وهى أسواق المنتجين الفرديين الذين أتاح لهم « جورباتشوف » فرصة المبادرة الخاصة ، مزدحمة بالمشترين ، ففيها وحدها شىء مما يمكن لأى مستهلك أن يشتريه خصوصا من الطعام . وقد دخلت أحداها وتجولت فيها ساعتين ، وهى سوق « كيفسكايا » . وكان الاحساس الذى بدا لى مرسوما على كل الملامح والتقاطيع هو أن كل مشتر يشعر أن بائعه لص أو مستغل على الأقل ! وشىء من هذا الشعور صحيح ، فإن المنتجين القادمين بالشاحنات الكبيرة من الجمهوريات البعيدة مثل « جورجيا » (يحملون فيها خضرا وفاكهة وسجقا) يعودون بشاحناتهم وقد وضع كل واحد منهم فى جيبه مابين خمسة وستة آلاف روبل ، فى حين أن أكبر موظف فى الدولة لايزيد مرتبه فى الشهر على ثلاثمائة روبل ـ أى ثلاثين دولارا بالسعر الحقيقى للروبل . وإن كان الانصاف يقتضى الاشارة إلى أن الاحتياجات الرئيسية للمواطن رخيصة ، فهو يدفع إيجارا للمسكن ـ حجرة واحدة ـ مالايزيد على خمسة روبلات !.

• **ظاهرة الحساسية المفرطة ، تجاه الأجانب** . وهم بالنسبة للمواطن السوفيتى العادى ثلاثة أنواع : سياح من الغرب جاءوا يرثون لحاله . وزوار من العالم الثالث جاءوا يأكلون على حسابه . ونوع آخر من الأجانب شكلهم مستفز بصرف النظر عن أوطانهم ، والشعور العام الذى يلاحقهم هو أنهم جاءوا ليخطفوا آخر كعكة فى يد اليتيم . وفى مسرح الباليه ، وكان يعيد تقديم بحيرة

البجع لـ « تشايكوفسكى » – رأيت سيدة أجنبية كريمة تتناول قطعة من الشيكولاته من علبة صغيرة فى يدها ، وتلمح طفلا مع أمه يتابعها بنظراته فتقدم له قطعة من الشيكولاته ، وإذا بالأم تخطف من ابنها قطعة الشيكولاته وتعيدها إلى صاحبتها وهى « تبرطم » بعبارات غاضبة كأنها وابنها تعرضا لاهانة لا تغتفر !.

وعند مدخل أحد المتاحف رأيت سيدة روسية أخرى تقترب فى غضب أشد من زائرة أجنبية علقت قرطا من الذهب فى أذنيها لتقول لها : « وتعلقين الذهب فى أذنيك .. أجدر بك أن تضعيه تحت حذائك وتدوسى عليه ! » .

ولعل الحساسية لدى السوفيت تصل إلى ذروتها عندما يقفون فى الطوابير . وهى عمل كل يوم لدرجة أدت إلى قول شائع بين الناس : « إذا رأيت طابورا فقف فيه أولا ، ثم اسأل بعد ذلك ماذا يبيعون » ؟!

وفى لينينجراد أشارت سيدة سوفيتية رقيقة تعرف الغرب بحكم عملها وتسافر بالضرورة مرات خارج وطنها – إلى طابور طويل واقف أمام أحد المحلات وسألتنى : « هل تعرف ماذا يفعلون فى هذا الطابور ؟ ينتظرون شراء الفودكا . » ثم استطردت تقول : « هل هذا معقول ؟ أن يضطر رجل أو امرأة إلى الوقوف فى الطابور ينتظر دوره لشراء فودكا . إن الشراب مسألة شخصية جدا ، وأن يضطر إنسان للتعرض للمهانة على هذا النحو – شىء لا يحتمل . » ثم استطردت تقول : «إننى فى كل مرة أعود من الخارج أحبس نفسى فى غرفتى أسبوعا أو أكثر إذا استطعت حتى أهيىء نفسى مرة أخرى للخروج !» .

• **ظاهرة الشكوى لكل سبب ، وأى سبب ، وأحيانا بلا سبب** . ولكثيرين من الناس – خصوصا من الشباب – أسباب للشكوى : الأجور ، ونقص السلع . وقيود السفر ، وانقطاع الاتصال مع العالم الخارجى ، والحدود على الطموح ، والمقارنة بالغرب ، وغيرها . وأما سوى الشباب فشكواهم الضياع فى مجتمع تداعت فيه العقائد ، وتهاوت المثل ، وتخلت فيه الآلهة عن دورها . على أن الشكوى أحيانا بلا سبب وهى تصدر عن ناس عايشوا عصر الركود العظيم

وشاركوا فيه ثم إذا هم الآن فجأة فى طلائع عصر « البيروسترويكا » . ولقد التقيت مع نموذج لهؤلاء من نجوم « الأجهزة » . رجل كان يعمل من قبل مع « جروميكو » ، وإذا هو الآن يشكو مما كان يلاقيه . وقلت له : « ظننتك كنت قريبا منه !» وكان رده بسرعة : « هذا الرجل لم يكن يعرف كيف يبتسم ؟ حاولت مرة أن أقول له ذلك باخلاص وكان رده على قائلا بجد «إننى أستطيع بالقطع أن أبتسم ، ولكن ألست ترى أن ذلك سوف يبدو غير طبيعى » ! – واستطرد مساعد « جروميكو » السابق يقول : «كان جروميكو يقول إنه يؤمن بتبادل الآراء ، وكان مفهومه لتبادل الآراء بيننا وبينه – ونحن مساعدوه – « أننا ندخل إليه بآرائنا ونخرج من عنده برأيه » ! – وهكذا يتحقق التبادل !» .

• **ظاهرة الاستعداد المتزايد لتصديق غيبيات** يصعب وجود أساس عقلى يؤيدها – أو يقين دينى يبشر بها – فالاهتمام شديد فى الاتحاد السوفيتى بقصة طبيب نفسى اسمه الدكتور «كاشبروفسكى » يملك قدرة تخدير مرضى العمليات الجراحية بمجرد نظرات عينيه – مطلة حتى من شاشات التليفزيون . وبجانب حكاية «كاشبروفسكى » فهناك حكاية فتاة آشورية اسمها « جونا » وهى الأخرى تملك « قدرة عجيبة » – كما يقال – على شفاء الأمراض بلمسة من أصابعها . بل ويدور الهمس أنها هى التى كانت تشرف على علاج « ليونيد بريجنيف » خلال السنوات الأخيرة من حياته . ويؤكد القائلون – وهم كثر – أن «جونا» الآشورية استطاعت بلمسات أصابعها أن تمد فى عمر « بريجنيف » خمس سنوات على الأقل !

وهذا كله بالطبع غير قصة تلاميذ المدرسة الثانوية رقم ٣٣ بمدينة « فورونيز » الذين رأوا رجالا من عوالم أخرى يتنزلون من مركبة فضاء وكل منهم له ثلاث عيون فى رأسه – إلى أخره .. وهى قصة راجت بشدة واستطاعت أن تنتزع أعمدة كثيرة من صحافة الاتحاد السوفيتى ومن اهتمام ملايين الناس فيه .

وتلك كلها أعراض حالة اجتماعية فقدت يقينها فى كل شىء ، وراحت

تلتمسه فى أى شىء حتى ظلمات كهوف الخرافة والسحر والشعوذة .

• وبجانب هذه الظاهرة مباشرة تبرز ظاهرة أخرى على نقيضها وهى ظاهرة « أسماك القرش » الاجتماعية ، وهى تتمثل فى أعداد كبيرة من أصحاب الملايين الجدد فى عوالم الظل والسوق السوداء . ولقد رأيت نماذج حية لهم فى مطعم « شايكا » الألمانى فى لينينجراد – ولم يكن واضحا لى كيف دخلوا إليه والدفع فيه بالدولار – لكنهم كانوا هناك . مجموعة تحتسى الويسكى الاسكتلندى بشراهة ، وتدخن السجائر الأمريكية بلا انقطاع ، وتعلق السلاسل الذهبية مدلاة من الصدور ظاهرة من وسط الفراء الغالى ، والاحساس بالعنف والشر ظاهر من كل التصرفات والحركات ، وكل « قرش » منهم محاط بكوكبة من الفتيات تملأ الأصباغ وجوههن فوق أزياء مستوردة بالقطع من الغرب ، وتفوح منهن عطور تبوح بمصدرها الباريسى ، والتصرفات والحركات هى الأخرى نقيض لأى عقيدة وحتى لأى خرافة .

وسألت عامل المطعم « أى عينة من الناس هؤلاء ؟» – وكان رده بأسى : « هذه هى الذئاب الجديدة على السهول الثلجية لروسيا . ومنهم كثيرون ، ولكن تعالى فى المساء لتراهم ملء المكان وليس ملء مائدتين أو ثلاث فقط !» .

• **واخيرا ظاهرة الكفر بكل القيادات** التى تعاقبت على القمة فى الكرملين باستثناء واحد هو « لينين » .

سألت عشرات عن « ستالين » ، وكان الرد أنه « مجرم » ، وهذا هو الوصف الذى سمعته متكررا فيما عدا رجلا واحدا أشار بعضلات ذراعه ايماء إلى القوة وقال بالروسية : « ستالين خراشو » (أى « جيد ») – ثم أضاف بكلمة انجليزية واحدة قائلاً : « قوى » ! .

ولم يكن « خروشوف » أسعد حظا ، فقد كان فى رأى الكل « نيت خراشو » – ليس جيدا .

وأما « بريجنيف » فقد كان كارثة . و « اندروبوف » مات بسرعة . و « تشرنينكو » مات أسرع ولعل ذلك كان أحسن !. وحين نجىء إلى « جورباتشوف » فإن الصمت يغلب ، ثم يكون القول « سوف ننتظر لنرى » !

وتطوع أستاذ جامعة فى لينينجراد يروى لى نكتة أخرى تقول :

« إن القطار السوفيتى تعاقب عليه أكثر من سائق ، وكل واحد منهم تصرف بطريقة .

« ستالين » قتل كل الركاب ، ولم يستبق معه غير راكب واحد هو « بريا » – وزير داخليته الرهيب – ومشى بالقطار وركابه كلهم جثث !.

و « خروشوف » جاء لقيادة القطار ولم يفعل أكثر من تحريك الجثث ، وجعل أصحابها يغنون معه ويرقصون والقطار يمشى بغير هدف ظاهر ، والرقص والغناء على أشدهما .

وأما « بريجنيف » فقد أوقف القطار واقنع ركابه بأن يقلدوا بحناجرهم صوت حركته يوهمون أنفسهم أنه يسير ، وهو فى الحقيقة معطل !»

وأسأل « و « جورباتشوف » ماذا فعل ؟.».

ويكون الرد : « صوت محرك القاطرة مسموع .. وجرس القيام يدق .. والكل ينتظر القيام ، وهذا لم يحدث حتى الآن . هناك مقدمات ونحن لانزال عندها !» .

وسألت نفس الأستاذ فى جامعة لينينجراد : « و « لينين » ؟»

وفاجأه السؤال فيما يبدو لأنه سكت . وتابعه الحاحى . وكان قوله بعد تردد :

« لينين قضية أخرى . دوره يحتاج إلى التدقيق من جديد ولكن هذه مسألة صعبة حتى الآن » .

وسألته عما يعنيه بتحفظ حتى الآن ؟.

وكان احساسى أن ظاهرة الكفر ـ أو الشك ـ واصلة إلى « لينين » فى يوم من الأيام ، وإن كان اعتقاد الغالبية فى قداسته ـ شبه الأسطورية ـ مازال يحميه حتى هذه اللحظة .. وأما غدا وبعد غد فليس هناك ضمان !

* * *

ولاسبوعين كاملين فى الاتحاد السوفيتى كانت تلك الظواهر حياة كل يوم . وأحاول تذكير نفسى بالحقائق إلى جانب المظاهر :

- فهذا مجتمع واحدة من القوتين الأعظم .. وتلك حقيقة لايملك أحد أن ينساها .
- ثم أن هذا مجتمع يحوى أكبر نسبة فى الدنيا كلها من المتعلمين والمثقفين العارفين بالتاريخ والآداب والعلوم والفنون .
- وهذا مجتمع له اسهام بارز فى حضارة الإنسان ، فهو المجتمع الذى خرج منه « بوشكين » و « دوستويفسكى » و « تولستوى » و « تورجنيف » و « جوركى » و « تشايكوفسكى » و « كورساكوف » و « باسترناك » .. ومئات غيرهم من أعلام حضارة البشر .
- ثم أن هذا مجتمع من تلك المجتمعات التى ملكت العصر فى مجالات الذرة والفضاء وغيرها .
- ثم أنه المجتمع الذى وقف ـ وذلك شىء لايمكن انكاره ـ بفهم وحزم مع العالم الثالث فى أصعب مراحل تطوره .

هى إذن أمة عظيمة بأى معيار ، لكنها أفاقت من « غياب طويل » على أزمة مفاجئة . أفاقت على زلزال دهم الكل دون أن يشعروا بمقدماته . بعضهم كان قريبا عند تخوم أوروبا الغربية ، وبعضهم كان بعيدا فى أقاصى آسيا . بعضهم

كان فى المزارع وبعضهم كان فى المصانع وبعضهم كان فى جهاز الدولة . بعضهم كان فى الخلاء على الطرق والجسور ، وبعضهم كان فى بيته وربما فى الحمام . وضرب الزلزال ضربته وانهارت الجدران !

ومع « البيروسترويكا » و « الجلاسنوست » (إعادة البناء والكلام بصوت عال) زادت حدة المشاعر ، وزاد إلحاح الحاجات .

وسألت دبلوماسيا سوفيتيا بارزا . قلت له : « وماذا بعد ؟» .

وكان رده :

« هى «البيروتسرويكا » و « الجلاسنوست » . من حق الناس أن يتكلموا .» .

وقلت :

وما آخرة الكلام ؟ وإذا زاد حد الكلام عما هو موجود من سلع وخدمات فهل تتوقع شيئا آخر غير الثورة ؟» .

وكان رده :

« إننا فى روسيا . وفى روسيا كل شىء ممكن . وفى روسيا كل شىء مستحيل !» .

وأصغيت إليه وفى ذاكرتى قصيدة لشاعر روسيا العظيم « بوشكين » يقول فى أحد أبياتها :

« نعم .. روسيا هى الشرق الأقرب إلى الغرب
نعم .. وروسيا هى الغرب الأقرب إلى الشرق .
وذلك لغزها الغامض ... غموض ليس فيه أسرار ! !» .
....
....

وكانت أسئلتى مازالت معلقة . ثم ماذا ؟ وكيف ؟ وإلى أين ؟ ! .

وسألته عما يعنيه بتحفظ حتى الآن ؟.

وكان احساسى أن ظاهرة الكفر ـ أو الشك ـ واصلة إلى « لينين » فى يوم من الأيام ، وإن كان اعتقاد الغالبية فى قداسته ـ شبه الأسطورية ـ مازال يحميه حتى هذه اللحظة .. وأما غدا وبعد غد فليس هناك ضمان !

* * *

ولاسبوعين كاملين فى الاتحاد السوفيتى كانت تلك الظواهر حياة كل يوم . وأحاول تذكير نفسى بالحقائق إلى جانب المظاهر :

- فهذا مجتمع واحدة من القوتين الأعظم .. وتلك حقيقة لايملك أحد أن ينساها .
- ثم أن هذا مجتمع يحوى أكبر نسبة فى الدنيا كلها من المتعلمين والمثقفين العارفين بالتاريخ والآداب والعلوم والفنون .
- وهذا مجتمع له اسهام بارز فى حضارة الإنسان ، فهو المجتمع الذى خرج منه « بوشكين » و « دوستويفسكى » و « تولستوى » و « تورجنيف » و « جوركى » و « تشايكوفسكى » و « كورساكوف » و « باسترناك » .. ومئات غيرهم من أعلام حضارة البشر .
- ثم أن هذا مجتمع من تلك المجتمعات التى ملكت العصر فى مجالات الذرة والفضاء وغيرها .
- ثم أنه المجتمع الذى وقف ـ وذلك شىء لايمكن انكاره ـ بفهم وحزم مع العالم الثالث فى أصعب مراحل تطوره .

هى إذن أمة عظيمة بأى معيار ، لكنها أفاقت من « غياب طويل » على أزمة مفاجئة . أفاقت على زلزال دهم الكل دون أن يشعروا بمقدماته . بعضهم كان قريبا عند تخوم أوروبا الغربية ، وبعضهم كان بعيدا فى أقاصى آسيا . بعضهم

كان فى المزارع وبعضهم كان فى المصانع وبعضهم كان فى جهاز الدولة . بعضهم كان فى الخلاء على الطرق والجسور ، وبعضهم كان فى بيته وربما فى الحمام . وضرب الزلزال ضربته وانهارت الجدران !

ومع « البيروسترويكا » و « الجلاسنوست » (إعادة البناء والكلام بصوت عال) زادت حدة المشاعر ، وزاد إلحاح الحاجات .

وسألت دبلوماسيا سوفيتيا بارزا . قلت له : « وماذا بعد ؟» .

وكان رده :

« هى «البيروتسرويكا » و « الجلاسنوست » . من حق الناس أن يتكلموا . » .

وقلت :

وما آخرة الكلام ؟ وإذا زاد حد الكلام عما هو موجود من سلع وخدمات فهل تتوقع شيئا آخر غير الثورة ؟» .

وكان رده :

« إننا فى روسيا . وفى روسيا كل شىء ممكن . وفى روسيا كل شىء مستحيل !» .

وأصغيت إليه وفى ذاكرتى قصيدة لشاعر روسيا العظيم « بوشكين » يقول فى أحد أبياتها :

« نعم .. روسيا هى الشرق الأقرب إلى الغرب
نعم .. وروسيا هى الغرب الأقرب إلى الشرق .
وذلك لغزها الغامض ... غموض ليس فيه أسرار ! ! » .

....

....

وكانت أسئلتى مازالت معلقة . ثم ماذا ؟ وكيف ؟ وإلى أين ؟ !.

شارع الديمقراطية فى العاصمة السوفيتية
لا يقدم مفتاحا أو بابا !

الخطوات العشر للاتحاد السوفيتى
نحو الوضع الراهن فيه

ما العمل ؟ هذا هو السؤال الذى واجهه
« لينين » ويواجهه اليوم
« جورباتشوف » بعد سبعين سنة !

(٣)

كل غريب قادم إلى موسكو ، يحاول استطلاع أحوالها ، يسمع نصيحة واحدة هى « أن يذهب إلى شارع « أرباط » (اسمه من أصل عربى كما هو واضح) ليرى عمق التغييرات التى جرت فى روسيا ـ فقد تحول هذا الشارع إلى شارع « للديمقراطية » ، وفيه يمكن رؤيتها حية متحركة متدفقة كالشلال . كان الشارع فى الأصل بمبانيه الباقية على ألوانها من القرن الخامس عشر ومابعده من القرون ـ ملتقى للكتاب والفنانين والشعراء من كل مدرسة ومذهب واتجاه . واتسعت أرصفته لأطنان من الكتب ، وأكداس من اللوحات ، وخليط من أصوات الموسيقى . وكان يقال أن أعمدة النور الجميلة والمهيبة ـ من بقايا مجد عصر « كاترين العظيمة » ـ والتى تمتد صفين متقابلين بطول الشارع العريض ـ هى فى الواقع أرواح شعراء أضاعوا عمرهم يغنون تحت أضوائها للناس فى الصيف ، ولأنفسهم فى زمهرير الشتاء حتى تجمدوا هناك فى مواقعهم وحولهم هالات من النور .

واختلطت قصص شارع « أرباط » بحياة روسيا فى القرون الأخيرة حتى أصبح معرضا حيا من معارض التاريخ : فى هذا البيت كانت « كاترين العظيمة » تجيء تحت جنح الظلام للقاء عشيق لها من الفنانين . وفى هذا البيت جاء « نابليون بونابرت » حينما وصلت جيوشه إلى الكرملين ودخلته طلائع فرسانه بالفعل وتناول أول عشاء له فى عاصمة القياصرة . وفى هذا البيت جاء « لينين »

عدة مرات يلتقى بجماعات من المثقفين الثوريين يقنعهم بأن لحظة بناء مجتمع الحرية والمساواة والأخاء التى نادت بها الثورة الفرنسية قد وجدت فرصتها أخيرا فى روسيا ، ولكل الشعب وليس للبرجوازية فقط . وهكذا وهكذا تتناثر الأساطير فى شارع «أرباط» وحوله .

وعندما جاء « ستالين » إلى السلطة انطفأت الأنوار فى شارع « أرباط » واختنقت أنفاس الكتب ، وبهتت ألوان اللوحات ، وتحشرج صوت الموسيقى ، وأصبح شارع « أرباط » شارع الهمس المرتعش الخائف من المطاردة والملاحقة – تمسك فيه بأى عابر سبيل وتبعث به إلى معسكرات الاعتقال والعمل ... أو إلى مجاهل النفى فى سيبيريا .

ثم جاء « جورباتشوف » ومعه سياسة « البيروسترويكا » (اعادة البناء) و « الجلاسنوست » (الكلام بصوت عال) – وعاد النبض من جديد إلى شارع « أرباط » . ورجعت إليه الطيور المهاجرة سربا بعد سرب ، كل يحمل أشجانه وأوهامه وأحزانه ، وبقايا خوف غلبه اليأس فأصبح نوعا من الشجاعة تصب حرارتها فى ألفاظ كبيرة ، لكنها عاجزة عن الفعل .

وقرر «جورباتشوف» أن يجعله شارعا «للديمقراطية» . وصدر أمر بمنع مرور السيارات فيه حتى يتحول إلى حرم أمن للناس . يسيرون فيه أو يتجمعون أو يتظاهرون ويقول كل منهم ما بدا له – لا رقيب ولا حسيب .

وبدورى سمعت نصيحة الذهاب إلى شارع « أرباط » ، لأرى التغيير الذى جرى فى روسيا وأحس بدفئه . ومثل كثيرين غيرى أخذت بالنصيحة وذهبت لقضاء ساعات ذات مساء فى شارع « أرباط » وكان ما رأيت وسمعت مسليا – ولا أستعمل وصفا آخر . وربما كان أكثر مالفت نظرى أن ألسنة النقد بدأت تصل إلى فاتح «شارع الديمقراطية» شخصيا ، وهو «ميخائيل جورباتشوف» – وإلى زوجته «رائيسا» أيضا – فقد وقفت دقائق أمام تجمع أحاط بشاعر يلقى قصيدة على طريقة قصة «بوشكين» الشعرية المشهورة « حكاية الملك

سلطان » ، وكانت القصيدة تقول :

« على رائيسا » زوجة الحاكم ... أن تكون أكثر تواضعا .
فلماذا تغير فى اليوم الواحد ثلاثة معاطف فراء
وتدس فى حقيبتها الحلوى وتوزعها على الأطفال الجوعى
يقال فى العهود الغابرة أن زوجة القيصر ايفان
كانت تلقى بالنقود من الشرفة
ولكن ذلك شىء تافه – بالمقارنة بما تصنعه رائيسا فى أيامنا هذه .
فعندما سقط المطر وقف جنرال بالمظلة
فوق رأسها لمدة ساعة
رائيسا ليس فى دماغها إلا الخرق والأحذية والأشرطة والقبعات
أما ما تحت القبعة فخواء ...
فإلى أى مدى سنصبر يا « ميشكا » (تصغير « ميخائيل ») .

* * *

كانت تجربة شارع « أرباط » مسلية – كما قلت وليس أكثر – لكنى لم أجده كما أشار على كثيرون : مفتاحا لما يجرى فى روسيا أو دليلا يرشد إليه .

بدا لى أن مايجرى فى روسيا زلزال حقيقى أصاب هذا البلد الشاسع والمتنوع والضخم كأنه قارة بأكملها ، وبالتالى فإن ما جرى ويجرى فيه لا يمكن النفاذ إليه من شارع واحد تختلط فيه الكلمات والأصوات والألوان ، وهى فى أحسن أحوالها قد تعبر عن حقائق ولكنها لا تنشئ هذه الحقائق !

إن حقائق – أو قوانين – حدوث الزلزال لها – ولابد أن تكون لها – أسباب ودواع أعمق وأوسع وإذا اخترنا أن نأخذ التعريف العلمى للزلزال دليلا ومرشدا – بدلا من كلمات وأصوات وألوان شارع « أرباط » – فربما وجدنا أنفسنا أقرب كثيرا إلى ما نبحث عنه – من كل مداخل شارع « أرباط » وأرصفته ومبانيه وأزقته وأحواشه !

وهنا قد يكون مفيدا أن نستعيد مرة أخرى تعليل حدوث الزلازل طبقا لموسوعة العلوم الصادرة عن « ماجروهيل » ، وملخصه كما يلى :

« إن الزلازل اهتزازات عنيفة ترج منطقة من سطح الأرض بعنف مدمر ، وقد تصل قوة هذه الاهتزازات إلى حد إصابة سطح الأرض بالتشقق والانكسار ، وذلك يحدث نتيجة لتحرك واحتكاك كتل جيولوجية ضخمة فى باطن الأرض ، أو نتيجة لنشاط بركانى تصدر عنه حرارة زائدة أو غازات أو اشعاعات تتسرب مندفعة إلى فجوات واسعة بين هذه الكتل ... وعندما يجىء الزلزال فإن هزة خفيفة تمهد له . وبعد أن يقع الزلزال الكبير فإن هزات لاحقة لابد أن تعقبه . وبعضها يمكن أن يكون فى قوة الزلزال الكبير وخطره » .

وظنى أن ذلك بالضبط هو ما حدث فى الاتحاد السوفيتى ، اقتصاديا واجتماعيا وفكريا ، وبالطبع سياسيا .

وإذا كان هذا الظن صحيحا ، أو على الأقل قريبا من الصحة ، فإن الخطوة الضرورية ـ بعده ـ لتقصى أسباب ما جرى ويجرى فى الاتحاد السوفيتى تقتضى العودة إلى الوراء قليلا ـ أكثر مما تقتضى زيارة شارع « أرباط » الآن .

- العودة إلى الكتل ـ الإنسانية وليس الجيولوجية ـ المتحركة والمحتكة ببعضها .
- والعودة إلى النشاط البركانى فى وجدان وضمير بلد بعينه ـ وليس فى باطن الأرض .
- والعودة إلى المشاعر والأمانى والطموحات المحبوسة تبحث لنفسها عن مخرج ـ وليس للغازات أو الاشعاعات المكبوتة تضغط وتتسرب من أى فجوات تنفتح لها بين طبقات الصخور .

فذلك كله هو الذى يمهد للزلزال السياسى وللزلزال الطبيعى على السواء ! .

* * *

إن العودة إلى التاريخ ـ كالحفر فى طبقات الأرض ـ دائما متعبة وأحيانا مملة ، فهى تبدو متصلة بالماضى أكثر من اتصالها بالمستقبل . وليس هذا فى ظنى دقيقا ، واعتقادى أن النظر إلى الوراء والنظر إلى أمام كلاهما ضرورى للتقدم بمثل ما يفعل سائق السيارة : ينظر فى المرآة المعلقة أمامه فوق عجلة القيادة لكى يرى ماوراءه ، ثم يعيد تركيز بصره على طريقه المفتوح إلى أمام ، وهكذا نظرة إلى الوراء ثم تركيز على المستقبل ، أو يصبح التقدم مغامرة محفوفة بالمخاطر .

وإذا كان ذلك التوصيف للحال مقبولا ، فإن نظرة إلى الوراء قد لا تكشف فقط عن تعليل صحيح أو قريب من الصحة لما جرى ويجرى فى الاتحاد السوفيتى ـ وإنما أيضا لكثير من متغيرات العصر والعالم .

وهكذا نبدأ :

V. Important

ـ ١ ـ

- **لنقل ـ أولا ـ** أن هذا القرن العشرين الذى نعيش الآن سنواته الأخيرة ـ بدأ منذ تسعين سنة تقريبا تتنازعه فكرتان رئيسيتان : فكرة تقول إن « المبادرة الفردية » هى الطريق الطبيعى للمستقبل . وفكرة ثانية تقول إن « التنظيم الاجتماعى » هو الطريق السليم لهذا المستقبل .

وكانت الرأسمالية ـ مجسدة فى أمريكا ـ تتراءى وكأنها شكل المستقبل على أساس فكرة « المبادرة الفردية » .

وعلى الناحية الثانية كانت فكرة « التنظيم الاجتماعى » لاتتجسد فى دولة ، وإنما تتجسد فى الفكر الشيوعى كما صاغه « ماركس » و « انجلز » ، وفى أفكار الاشتراكية « الفابية » فى انجلترا ، وفى الحركات الإنسانية التى أيقظتها الثورة الفرنسية طوال القرن التاسع عشر ووصلت إلى مداخل القرن العشرين وقد

تحولت إلى تيار عالمى ضخم ينادى بالثورة ويتطلع إلى فردوس يتحقق فى هذا العالم ، وليس فردوسا يتأجل إلى عالم آخر .

ـ ٢ ـ

• **ولنقل ـ ثانيا ـ** إنه حين وقعت الثورة فى روسيا ١٩١٧ وانهار حكم القياصرة فى أعقاب انهيار جيوشهم أمام الجيش الألمانى ، ثم حين استولى البلاشفة بعد ذلك ، وبقيادة « لينين » ، على السلطة باسم الكادحين والمظلومين والمعدمين ـ فإن كثيرين فى العالم تصوروا أن فكرة « التنظيم الاجتماعى » تجسدت بالفعل فى دولة ، بمثل ما تجسدت الرأسمالية من قبل فى أمريكا .

وتحمس كثيرون فى قارات الأرض ، وطاروا على أجنحة الأمل لدولة العدل الأولى فى التاريخ الإنسانى ، وفى غمرة الحماس فاتتهم حقائق :

• فاتهم أن مأساة « الثورة » ـ أى ثورة ـ هى أنها فى لحظة انتصارها تجد نفسها فى واقع الأمر وريثة وحيدة لنفس الأوضاع المتردية التى ساعدتها على النصر . وأكثر من ذلك فإنها بعد انتصارها تصبح مسئولة عن هذه الأوضاع المتردية .

• ثم أن هذه الأسباب التى تؤدى إلى قيام الثورات ليس سهلا علاجها بنفس سرعة الأمال فى تغييرها . والفارق فى السرعة بين الاثنين هو الفارق بين سرعة المحراث يشق الأرض ، وبين انطلاق الصاروخ يشق الفضاء !

ولم يكن فى يد البلاشفة القادمين بالثورة إلى موسكو من السجون المظلمة والمنافى الموحشة ـ ما يعالجون به الميراث الثقيل الذى انتقلت مسئولياته إليهم ـ غير السلطة .

والواقع أن الذى يتابع تاريخ روسيا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ما يلبث أن يكتشف أن الحياة السياسية طوال هذه الحقب

الدامية كانت صراعا بين المثقفين والقياصرة . وحين جاءت الثورة بالسلطة لم تعثر لنفسها على حل غير القضاء على الاثنين معا !

ولكن كلا من الفريقين ـ المثقفين والقياصرة ـ ترك لها بعد اختفائه أشباحا لم تختف ، وإنما ظلت ماثلة هناك طول الوقت .

• فالمثقفون تركوا لها ظاهرة « الانشقاق » و « التمرد » إلى درجة الشهادة .

• والقياصرة تركوا لها ظاهرة « الامبراطورية » فى عصور كانت فيها الامبراطوريات تتهاوى !

والحاصل أن التركيب الامبراطورى لروسيا القيصرية كان أعقد وأصعب ما ورثته الثورة البلشفية التى وجدت أمامها وطنا أشبه مايكون بلوحة من الموزاييك ـ مائة قطعة منفصلة بالعدد ـ أمما ولغات وطوائف وأديانا شتى ، من حدود أوروبا إلى ثلوج سيبيريا ، ومن بحر البلطيق إلى بحر قزوين .

وكان الحل الذى وجده « لينين » هو أن تتحول ممتلكات أو أجزاء الامبراطورية المتهالكة إلى جمهوريات شعبية فى اتحاد يضمها . وبدا هذا الحل « للامبراطورية » ممكنا من ظن « لينين » أن الصراع فى العالم طبقى وليس وطنيا ، وأن مجتمع المساواة عندما يتحقق كفيل بحل تناقض الهويات الوطنية والدينية والعرقية ، إلى آخره . وفى ذلك الوقت كانت الرأسمالية العالمية المتطيرة من فكرة « التنظيم الاجتماعى » تحاول التدخل عسكريا فى روسيا ـ تساعدها فى ذلك عناصر من الروس المطالبين بعودة العرش القيصرى قبل أن تتمكن فكرة « التنظيم الاجتماعى » من إقامة دولتها !

ـ ٣ ـ

• **ولنقل ـ ثالثا ـ** أنه عندما جاء « ستالين » إلى السلطة فى أواخر العشرينيات واجهته حقيقة بديهية ، وقد رتب عليها نتائج بالغة الخطر .

إن فكرة « المبادرة الفردية » هى بالفعل منطق الطبيعة البشرية التى تحقق ذاتها بالتملك أكثر مما تحققها بأى شىء آخر . وأما فكرة « التنظيم الاجتماعى » فإنها تحتاج إلى « الفرض بالقوة » لأنها مختلفة عن منطق الطبيعة البشرية رغم اتفاقها مع مطلب العدل .

وعندما يبدأ « الفرض بالقوة » ويكون موجها إلى مجتمع بأسره يرجى تغييره ـ إذن فإن هذا « الفرض بالقوة » يصبح اختصاص الدولة .

وهكذا أصبح الفكر ـ الذى يدعو له حزب ـ سلطة دولة تفرض بالقوة على مجتمع ـ أن يتشكل بالكامل من جديد وفق تصوراتها ، وكانت هذه التصورات جامحة ابتداء من إلغاء الملكية إلى إلغاء الدين ! .

وربما كان ما أغرى «ستالين» على الغلو فى طريق «الفرض بالقوة» أن تلك كانت فترة أزمة الرأسمالية الكبرى فى أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات ، وحين كانت الرأسمالية فى أمريكا محاصرة ، وكانت جيوش العاطلين خصوصا من الجنود العائدين بعد الحرب العالمية (الأولى) إلى ظروف الكساد والبطالة فى ذلك الوقت ـ تعسكر فى شارع بنسلفانيا تحيط بالبيت الأبيض الأمريكى وترغم الرئيس الجالس فيه وقتها ـ وهو الرئيس « هوفر » ـ على استعمال القوة المسلحة فى فض المظاهرات والاعتصامات ـ حتى أن قائد الجيش الأمريكى فى تلك الظروف وهو الجنرال « ماك أرثر » راودته فكرة الاستيلاء على السلطة لإنقاذ الدولة من «كساح وعجز» المدنيين الحزبيين ، وهمس بفكرته هذه إلى رئيس أركان حربه وكان فى ذلك الوقت الكولونيل « دوايت ايزنهاور » (الذى أصبح رئيسا للولايات المتحدة فى أوائل الخمسينيات) .

وهكذا فإن « ستالين » سار فى سبيل « الفرض بالقوة » إلى نهاياته الدموية وكان بين أسبابه أن « الثورة » أحق أن تفرض ـ من « الثورة المضادة » ـ التى يراها أمام عينيه على الناحية الأخرى من الأطلنطى .

- ٤ -

• **ولنقل ـ رابعا ـ** أن الرأسمالية بعد أزمتها الكبرى طورت أحوالها واستطاعت أن تعطى نفسها فرصة جديدة تماما بقيادة « فرانكلين روزفلت » الذى اعتمد على أفكار كثيرين من المجتهدين ، وأولهم رجل مثل « ماينارد كينز » أستاذ الاقتصاد البريطانى الذى شغلته أزمة الرأسمالية وراح يبحث بـ « حرية » عن مخرج لها ـ كذلك كانت الرأسمالية الأوروبية قد ذهبت إلى حد تمهيد الطريق أمام « هتلر » ليوقف زحف الشيوعيين على « برلين » !

وفى هذا الوقت كان « ستالين » يواصل « الفرض بالقوة » ، حتى ضد رأى « لينين » .

كانت صيحة « لينين » الشهيرة فى ظروف الثورة وفى أعقاب الحرب هى : « السلام للجنود ، والأرض للفلاحين ، والسلطة للسوفيتات » (أى المجالس الشعبية المنتخبة) ، ومع ضرورات « الفرض بالقوة » فإن « ستالين » بدأ ينشئ جيشا قويا لأعداء الداخل وللنازية الهتلرية العسكرية ـ ثم استرد الأرض للملكية الدولة بعد أن رأى الفلاحين الذين تملكوها عاجزين عن إدارتها ، فقد تعودوا قرونا أن يكونوا عبيدا بالبيع والشراء مع الأرض دون تجربة فى إدارتها ـ وكانت لـ « ستالين » ذرائعه ، فإن النظام الزراعى على عهد القياصرة لم يكن إقطاعا بالمعنى الذى عرفته أوروبا الغربية ، وإنما كان عبودية حقيقية تطلب من السيد أن يتحمل مسئولية طعامها وشرابها وملبسها ومأواها ، ولا تطالبه بعد ذلك بشىء . وبهذه المسئولية الكاملة للدولة فى الزراعة ، وقبلها فى الصناعة والتجارة والخدمات ، ثم بمطالب دخول الاتحاد السوفيتى إلى عصر الصناعات الثقيلة ـ فإن السلطة لم تعد للسوفيت وإنما أصبحت للحزب ، وذاب الحزب فى الدولة ، وعلى القمة رجل واحد يملى إرادته المطلقة على كل الناس وكل الأشياء ! ـ ولم يصبح « ستالين » بهذه السلطات كلها ـ قيصرا أحمر جديدا فقط ... وإنما أصبح إلها يملك مقادير الحياة والموت !

- ٥ -

• **ولنقل - خامسا -** أن المأزق الأكبر الذى واجه « ستالين » كان هو عبء « الامبراطورية » التى تحولت إلى اتحاد جمهوريات . والحقيقة أن هذه الامبراطورية كانت نوعا فريدا من الامبراطوريات نشأ كله حول المركز الامبراطورى ولم يبتعد عنه كما كان الحال فى الامبراطورية البريطانية أو الامبراطورية الفرنسية مثلا .

كانت الامبراطورية بالنسبة لهذه القوى العتيقة (بريطانيا وفرنسا وغيرهما) - مغنما مستباحا . مصدرا للخامات الطبيعية والعمالة الرخيصة ، وفى نفس الوقت سوقا للسلع المصنعة بأى أسعار يختارها السيد الامبراطورى .

ثم أن هذه الامبراطوريات التقليدية كانت تملك مرونة فى التصرف إزاء ممتلكاتها ، فإذا زادت تكاليف واحدة منها على مكاسبها كان فى الامكان التخلى عنها بمنحها حق تقرير المصير ، ولو إلى حد الاستقلال .

أما الامبراطورية الروسية فإن نشوءها واحاطتها كلها من حول مركز واحد أدى إلى اعتبارها جزءا من الوطن ذاته . أى أن استغلالها صعب ، والتخلى عنها مستحيل !

وبمنطق أن التناقض هو الطبقة وليس الوطنية أو التراث أو الدين - فإن الاتحاد السوفيتى وجد نفسه يعطى مستعمراته أكثر مما يأخذ منها !

وكان هذا مأزقا حقيقيا !.

- ٦ -

• **ولنقل - سادسا -** أن التناقض الرئيسى فى العالم فى الثلاثينيات كان لايزال متأزما من حول نفس الفكرتين السابقتين : فكرة « المبادرة الفردية » وفكرة « التنظيم الاجتماعى » . ولكن المنافسة احتدمت فجأة على المستعمرات

ومغانمها بين جناحين داخل فكرة « المبادرة الفردية » . وهما ألمانيا النازية المطالبة بحدود « الرايخ » الألمانى التاريخية وبمستعمراتها القديمة من ناحية ، وبين بريطانيا وفرنسا ، ثم الولايات المتحدة فيما بعد - من ناحية أخرى .

وكان « ستالين » يتابع تحركات ومناورات الجناحين المتنافسين فى إطار فكرة « المبادرة الفردية » ، وكان مناه - كما تقول الأسطورة الهندية - أن يرى أسدين يأكلان بعضهما حتى الذيول - بشرط أن يظل هو بعيدا عن الحرب المحتملة بينهما ، وكان من هنا أنه وقع مع « هتلر » ميثاق عدم الاعتداء الشهير فى أغسطس ١٩٣٩ . وبعده نشبت الحرب فعلا بين الأسدين قبل مضى شهر واحد ، أى فى سبتمبر ١٩٣٩ .

وأدرك « هتلر » غلطته فى منتصف الطريق وقبل أن يصل الأكل بين الأسدين إلى الذيول - وهكذا كان هجومه على روسيا إشارة إلى بقية معسكر « الرأسمالية » حتى يعرف هذا المعسكر إنه لم يتخل عن التناقض الرئيسى مع العدو « الشيوعى » المشترك ، وكان أمله أن تتوقف الحرب فى الغرب وأن يتركه الآخرون « يفرض الزمان الألمانى على المكان الروسى » .

ولكن « الآخرين » كانوا أذكى منه وقرروا أن « يتحالفوا مع الشيطان ضده » - على حد تعبير « تشرشل » الذى كان تقديره أن الحرب - خصوصا مع قرب اشتراك أمريكا فيها - قد تنتهى بالقضاء على المنافس الألمانى فى برلين ، وبالقضاء فى نفس الوقت على العدو العقائدى فى موسكو أو على الأقل استنزافه .

- ٧ -

• **ولنقل - سابعا -** أن المكان الروسى استطاع أن يبتلع الزمان الألمانى ، وتحققت هزيمة « هتلر » ، وخرج « ستالين » من الحرب وسمعة الاتحاد السوفيتى

فى السماء . كما أن التعبئة من أجل الحرب انتقلت إلى مابعدها لإعادة بناء الصناعات الثقيلة .

كانت ظروف الحرب قد أيقظت نوعا من « التوحد » فى روسيا حتى أن الوصف الرسمى لهذه الحرب أصبح هو « الحرب الوطنية الكبرى » .

وكان مناخ هذه « الحرب الوطنية الكبرى » قد انعكس على جيوش الإنتاج . فإذا الاتحاد السوفيتى يحقق معدلات باهرة فى النمو تزيد عن عشرة فى المائة سنويا .

كذلك فإن مناخ هذه الحرب كبح قليلا من مظاهر القمع . وتصور كثيرون فى الاتحاد السوفيتى أنهم بتضحيات الحرب لم يشتروا فقط سلامة حدودهم . وإنما اشتروا أيضا امكانيات تحررهم من قهر الحزب والحكومة و « ستالين » .

وكانت هذه هى الفترة التى ظهر فيها أدباء بارزون بعد فترة من الجفاف بينهم « شولوخوف » و « أهرنبورج » و « باسترناك » وغيرهم . كذلك كانت تلك هى الفترة التى استطاع فيها العلم السوفيتى أن يلحق بالولايات المتحدة الأمريكية إلى أفاق عصر الذرة والفضاء .

لكن « الحزب والدولة » و « ستالين » عادا بالأمور سيرتها الأولى . خصوصا وقد بدأت الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتى . وكانت الرأسمالية فى ذلك الوقت قد تمركزت فى حصنها الرئيسى الذى أطلت منه على بدايات القرن . وهو الولايات المتحدة الأمريكية .

- ٨ -

• **ولنقل - ثامنا -** أنه فى أواخر الخمسينيات وبداية الستينيات - أى فى نهاية عصر الرئيس الأمريكى « دوايت ايزنهاور » ومطلع عصر الرئيس الأمريكى « جون كنيدى » - استطاعت الرأسمالية أن تجند أكثر العقول خصوبة وقدرة على

الخلق فى الولايات المتحدة . كانت الرأسمالية قد اكتشفت بتجربة ماقبل الحرب العالمية الثانية أن المفكرين فى كل مجالات العلوم والفنون والآداب هم عنصر القلق الرئيسى والمراجعة فى مجتمعاتهم ، وأن اجتذابهم لصالح « مؤسسة الامتياز والنفوذ والسلطة » أولى من تركهم عنصرا للشك والتشكيك فى هذه المجتمعات . وهكذا كان . ولم تعد « المؤسسة » الأمريكية هى مجرد محترفى السياسة الحزبية ، وإنما دعى إلى صفوفها مفكرون سياسيون تحولوا فى واقع الأمر إلى مهندسى سياسات . رجال من طراز « دين آتشيسون » و « ماك جورج باندى » و « روبرت ماكنمارا » و « جون ماكلوى » و « كينيث جالبريث » و « جورج كينان » و « جورج بول » و « هنرى كيسنجر » و « زبجنيو برجينسكى » ، ومئات غيرهم .

وكان هؤلاء هم الذين رسموا خطة المواجهة الجديدة مع الاتحاد السوفيتى وتتلخص فى احتوائه وحصره فى الشرق ثم ارغامه بعد ذلك على الدخول فى سباق للسلاح النووى والتقليدى يفرض عليه تغيير أولوياته ! - فإذا كانت أولويته الأولى بعد الحرب هى إعادة التعمير والبناء وتطوير نفسه بما يتلاءم مع عصر الذرة والفضاء - فإنه من الضرورى الآن إجباره على أن يتراجع بهذه الأولوية من الدرجة الأولى إلى الدرجة الثانية لتجىء بعد سباق السلاح .

وكان منطق هؤلاء أن الرأسمالية بمواردها المالية الطائلة (صرفت الولايات المتحدة فى سباق السلاح ١٠٫٣ تريليون دولار) - سوف تكون أقدر على احتمال أعباء سباق السلاح من الجانب الآخر بمحدودية موارده وبأثقال الامبراطورية - وكلها محيطة بالمركز وضمن مسئوليته الوطنية - وهذه كلها التزامات يستحيل التخلى عنها كما يستحيل احتمالها إلى زمن طويل .

وكان حسابهم النهائى - بعد هذا كله - أن سباق السلاح سوف يقطع ظهر الدولة الشيوعية ويرغمها على إعلان عجزها !

وفى نفس الوقت كان تقدير هؤلاء أن سباق السلاح فى مجتمعات « المبادرة

الفردية » سوف يؤدى إلى استغلال كل الاكتشافات الجديدة من ضغوط الحرب وحمى سباق السلاح بواسطة الشركات الكبرى سواء فيها المنتجة للسلاح أو غيرها فى كافة مجالات الإنتاج .

وصح تقديرهم .

وكان العكس هو الذى وقع فى المجتمع المقفول على نفسه بتركيز السلطة فى الشرق ... فالاكتشافات الجديدة بضغوط الحرب أو حمى سباق السلاح ـ بقيت محصورة فى الجانب العسكرى وحده ، ولم تنفذ منه إلى الجانب المدنى . بدعوى الحرص على أسرار الدفاع إزاء أعداء محيطين بدولة « التنظيم الاجتماعى » من كل ناحية !

وحدثت ـ وكان لابد أن تحدث ـ تجربة غريبة فى النمو . وهى النمو على طريقة الأعمدة .

عامود صناعات الفضاء مستقلا يعلو ويعلو كل يوم .

وعامود الصناعات النووية مستقلا يعلو ويعلو كل يوم .

ومشكلة النمو على طريقة الأعمدة لا تحتاج إلى طول شرح . وباختصار فإن الأعمدة لا قيمة لها غير أن تحمل بناء أوسع بكثير وأعرض منها . فإذا بقيت مجرد أعمدة أمكن لها أن تصل إلى السماء بدون بناء .

وهو بالضبط ما حدث .

ـ ٩ ـ

• **ولنقل ـ تاسعا ـ** أن الرأسمالية تجاوزت مرحلة الصناعات الثقيلة ـ الثورة الصناعية الثانية ـ ودخلت ـ خصوصا بدفع سباق السلاح ـ إلى الثورة الصناعية الثالثة (الاليكترونيات) . فى حين ظل الاتحاد السوفيتى فى أواخر ثورة سابقة لايستطيع الخروج منها .

□ كان الخروج من الثورة الصناعية الثانية ودخول الثورة الصناعية الثالثة يقتضى التمرد على منطق النمو بطريقة الأعمدة ـ وكان هذا صعبا .

□ وكان الخروج إلى الثورة الصناعية الثالثة يقتضى حرية تبادل وشيوع معارف التكنولوجيا الجديدة ـ وكان هذا أشد صعوبة .

□ وكان الخروج إلى الثورة الصناعية الثالثة يقتضى إطلاق حرية الفكر والتجربة والخطأ ـ وكان ذلك مستحيلا .

وضاعف من خطورة هذا الوضع أن مجتمعات تركيز السلطة تعتبر أن المعلومات مصدر قوة لأصحابها ، وبالتالى فاحتكارها ضرورى ـ وأما مجتمعات « المبادرة الفردية » فقد كانت المعلومات فى رأيها مشاعا للتداول والانتشار .

وكان هذا بالضبط هو الفارق بين توجه يستهدف « تعظيم السلطة » . وتوجه آخر يستهدف « تعظيم المصلحة » .

ـ ١٠ ـ

• **ولنقل ـ عاشرا ـ** أن الثورة الصناعية الثالثة ـ التى فاضت على الغرب ـ أحدثت انقلابا جديدا وهائلا فى وسائل الإنتاج ، وبالطبع فإن كل تغيير فى وسائل الإنتاج لابد أن يلحق به تغيير مماثل فى علاقات الإنتاج ـ أى توزيع عائده .

وذلك حدث من قبل . فعندما وقعت الثورة الصناعية الأولى بظهور البخار ـ استطاع العمال أن يحصلوا لأنفسهم ـ بالتظاهر وبالاضراب وحتى بالعصيان ـ على نصيب أكبر من عائد الإنتاج .

وذلك حدث أيضا بعد الثورة الصناعية الثانية بظهور الكهرباء .

وبمجىء الثورة الصناعية الثالثة أصبح فائض الإنتاج هائلا ـ وكانت إمكانيات التمرد والرفض قادرة على فرض إعادة التوزيع كما تجلى ـ فى أمريكا

وأوروبا الغربية ـ طول الستينيات ـ وبذلك تمت بسلام عملية إعادة اقتسام عائد الإنتاج على نحو يكفل عدالة أكثر لكل أطرافه وأولهم العمال .

ثم لحقت بعملية إعادة توزيع فائض الإنتاج إضافة أخرى أبعد أثرا وهى أن الثورة الصناعية الثالثة ـ ثورة الاليكترونيات ـ مدت فعلها إلى مجال الاتصالات فإذا الدنيا كلها « قرية واحدة » . وأهم من ذلك إذا الدنيا كلها سوق واحدة تولد إمكانيات للغنى لم تعرفها البشرية من قبل ، وبوسائل لم يكن لأحد عهد بها ولا حتى فى خياله . وكان الغنى فى الماضى معلقا بتبادل البضائع ، وطرأت مستجدات بدلت القواعد والقوانين السابقة .

وعلى سبيل المثال فإن الأموال المتحركة كل يوم فى بورصات نيويورك وطوكيو وفرانكفورت ولندن وغيرها تصل كل يوم ـ كل يوم ! ـ إلى أربعمائة بليون دولار فى حين أن تبادل البضائع لايزيد حجمه يوميا فى العالم على أربعة بلايين دولار . أى أن حركة تنقل الأموال أسرع مائة مرة من حركة التبادل التجارى التقليدى .

ولقد أصبح المال نفسه سلعة ـ « أوراق تطارد أوراقا أخرى » ـ على حد تعبير « فولكر » رئيس بنك الاحتياطى الأمريكى السابق ـ وفى هذه المطاردة تتحقق فرص للثراء خرافية .

ومنذ قرن من الزمان قال « هاينى » شاعر الألمان العظيم : « لقد أصبح المال فى هذا العصر إلها . وروتشيلد هو رسوله » .

وكانت تلك إشارة لما هو قادم فى المستقبل وما هو متحقق بالفعل الآن . فقد أصبح طلب « الثراء » دينا جديدا . والبنوك والبورصات الكبرى معابده ومحافظوها ومديروها كهانه ورهبانه . والصلاة والدعاء والترانيم لا تنقطع أصواتها . والأبواب كلها مفتوحة والفرص على الآخر .

كانت عملية إعادة توزيع فائض الإنتاج فى ظل الثورة الصناعية الثالثة ، ثم كانت عملية إمكانيات الاستثمار والثراء ـ التى لحقتها نتيجة ثورة الاتصالات ـ

كلاهما تحققان اتساعا هائلا فى « الطبقة الوسطى » وهى ركيزة التماسك والاتساق فى كل المجتمعات . والواقع أن الثورة الصناعية الثالثة ـ بكل ما اشتملت عليه ـ أنشأت سلما عريضا تحركت عليه عملية الصعود الاجتماعى من طبقة العمال إلى الطبقة الوسطى . وعلى نحو لم يسبق له مثيل فى التاريخ .

وكانت دولة « التنظيم الاجتماعى » تعتبر أن عمال الغرب رصيد ثورى احتياطى لها . وضاع منها هذا الرصيد .

كذلك كانت دولة « التنظيم الاجتماعى » تعتبر أن شعوب المستعمرات القديمة رصيد ثورى احتياطى لها ، وبدأ هذا الرصيد يتبدد بدوره ويضيع ، لأن الثورة الصناعية الثالثة لم تكن فى حاجة إلى أيد عاملة رخيصة ، وإنما كانت تحتاج إلى عمال على درجة عالية من المهارة . كذلك لم تعد هذه الثورة فى حاجة إلى المواد الخام بواسطة الاحتلال العسكرى . بل إن أصحاب المواد الخام هم الذين أصبح عليهم أن يذهبوا بها إلى السوق العالمية ويبحثوا عن مشتر لها بأى ثمن تفرضه اعتبارات العرض والطلب . وهذه لعبة ليست فى أيديهم مفاتيحها !

أكثر من ذلك فإن الثورة الصناعية الثالثة أدت إلى بروز ظاهرة جديدة فى العالم وهى ظاهرة الشركات الدولية أو العابرة للقارات ـ كما يقولون ـ وبذلك فإن مجتمع « المبادرة الفردية » الذى كان يتمركز فى القلعة الأمريكية غادرها إلى العالم الواسع وحيث الظروف أكثر ملاءمة له . ثم زاد على ذلك أن مراكز جديدة تمكنت ـ فى ظروف مختلفة ـ من أن تلحق بالثورة الصناعية الثالثة من بداياتها ، كاليابان وألمانيا الغربية ، وبعدهما فرنسا وإيطاليا وبريطانيا وغيرها .

وكانت هذه المراكز كلها تملك قدرة هائلة على الجذب وعلى الاستيعاب حتى لموارد المستعمرات السابقة ، ويكفى أن فوائض البترول فى حقبة السبعينيات ـ وقد زادت عن ٢ تريليون دولار ـ ذهبت فى معظمها وقودا اضافيا يغذى حركة الثورة الصناعية الثالثة الزاحفة فى كل مكان ، دون أن يكون لها مقر فى دولة معينة بالذات .

وكان ذلك مخيفا ، وكان تأثيره فادحا على دولة « التنظيم الاجتماعى » التى لجأت إلى حالة « سلطة الدولة » ، ثم انتهت إلى حالة « دولة السلطة » ـ فقد تخلفت فى كل شىء حتى فى تحديد العدو الذى يواجهها . فلم يعد هذا العدو هو أمريكا ، ولا أمريكا واليابان ، ولا أمريكا واليابان وألمانيا الغربية أو غيرها ـ وإنما أصبح العدو نظاما عالميا جديدا بالكامل يفرض أحكامه وقواعده وشروطه ، ثم إنه عدو ليست له حدود ولا جيوش ولا عواصم !

* * *

□ كان « خروشوف » طليعة الزعماء السوفيت الذين لمحوا الحقائق مبكرا فى الستينيات وحاول أن يغير . ولكن العبء كان كبيرا . كما أن أولى مقتضياته كانت ضرورة تغيير النظام من أساسه . وكانت مشكلة « خروشوف » أنه حاول التغيير من القمة ، وجرب اقناع زملائه ، ولكن هؤلاء تكالبوا عليه خوفا من المغامرة ، وجردوه من السلطة ، وضنوا عليه بعد موته بمقبرة عند سور الكرملين كما حدث لغيره .

□ وجاء ثلاثى « بريجنيف » و«كوسيجين» و«بادجورنى» فى أعقاب سقوط «خروشوف» ، وكان الثلاثة من دارسى الهندسة ، وخطر لهم فى البداية أن بعضا من إعادة التنظيم ضمن الإطار القديم كفيل بتحقيق القفزة العالية ـ وكان ذلك ضربا من الوهم أفاق أصحابه منه وتراضوا بعده على أن الأفضل والأسلم هو ترك الأمور على حالها ومواصلة الحكم كما لو أن كل شىء مازال على حاله .

وكانت تلك فترة الركود العظيم ، وفرصة العمر الضائعة .

□ وكان « اندروبوف » ـ الذى جاء بعد موت « بريجنيف » ـ متنبها لما جرى ، ولكنه كان مريضا مرض الموت .

□ وكان « تشرنينكو » ـ الذى خلف « اندروبوف » ـ وقفة قصيرة مع الشلل المؤدى بدوره إلى الموت .

□ وانفتح الطريق أمام جيل جديد يتقدمه رجال من أمثال « جورباتشوف » و « يالتسين » و « ليجاتشيف » .

وتقدموا إلى القمة فى الكرملين وسط عالم غريب عليهم ومعاد .

وقربوا إلى جوارهم منشقين قدامى رأوا الحقيقة قبل أن يصيح الديك فى الكرملين مؤذنا بطلوع الفجر . رجال من أمثال « سخاروف » و « مدفيف » و « تورشين » .

وتفاوتت الاجتهادات بين رجال الجيل الجديد . فقد رأى « يالتسين » الاسراع بالتغيير ، واعتبر مغامرا وخرج . ثم رأى « ليجاتشيف » ضرورة الحركة على مهل . واعتبر رجعيا وتوارى فى الظل ...

وبقى « جورباتشوف » على القمة وحده . وهى موحشة . باردة . وملفوفة بالسحاب والضباب من مشاكل عاتية يتحتم عليه أن يتناولها بعلاج ، وليس هناك علاج غير التغيير من الأساس .

والاتحاد السوفيتى يرتج بالاهتزازات ، والكتل الضخمة (قوميات وأديان وأعراق) تتحرك وتحتك ببعضها . والنشاط البركانى (ثقافات وتطلعات وحقوق) يرفع درجة الحرارة بشكل زائد . والغازات والاشعاعات تتسرب إلى الفجوات الواسعة (احتجاجا وسخطا إلى حد الغضب) .

وكلها عوارض زلزال !

لكن أى زلزال فى العالم ـ طبيعيا كان أو إنسانيا ـ ومهما بلغ عنفه وقوته ـ لا يستطيع أن يغير وجه الأرض كلها ويطمس حقائقها السابقة عليه مرة واحدة !

ومن هنا فإن هناك حقائق ضخمة وباقية تستحق أن توضع تحت النظر :

١ ـ لم تفلس فكرة « المبادرة الفردية » أو تنتحر كما كان الفكر الشيوعى يأمل وينتظر !

ومن ناحية أخرى فإن فكرة « التنظيم الاجتماعى » لم تفقد ضروراتها وموجباتها الإنسانية ، مع التسليم بأهمية الحافز الطبيعى !

والدليل الحى على أن فكرة « التنظيم الاجتماعى » لم تسقط هو أن هذه الفكرة تزداد حيوية فى ازدهار شعبية حزب العمال البريطانى على حساب النزعات الفردية الجامحة فى سياسات « مرجريت تاتشر » . ثم أن الحزب الاشتراكى فى فرنسا يحكم تحت قيادة « فرانسوا ميتران » . وكذلك يحكم الحزب الاشتراكى لفترة ثالثة متعاقبة فى أسبانيا بزعامة « فيليب جونزالس » . والحزب الشيوعى الإيطالى مازال أكثر الأحزاب فى إيطاليا حيوية ونفوذا ، وهو الحزب الثانى فى البرلمان على أى حال . والحزب الشيوعى هو الثالث فى فرنسا رغم جمود قيادته . وشمال أوروبا ، وهو أكثر بقاع الأرض تقدما ورفاهية ، راض من زمن بحكومات اشتراكية . ثم أن العالم الثالث كله تقريبا ـ أو الأوطان المؤثرة فيه ـ تنزع على نحو أو آخر إلى الأخذ بنوع من « التنظيم الاجتماعى » كضرورة لا بديل لها فى طلب النمو والاستقرار .

كل هذا إلى جانب حقائق لايصح أن تنسى ، وهى أن فكرة « التنظيم الاجتماعى » مازالت تحكم فى الاتحاد السوفيتى وفى الصين ، وإن كانت داخلة الآن فى محاولات لملاءمة أوضاعها مع أوضاع عالم تهب عليه رياح التغيير عواصف وأعاصير ، ذلك أن « العقائد » لاتموت بالسكتة القلبية مرة واحدة وإنما تتواصل محاولاتها ـ ولو بالتنفس الصناعى أحيانا ـ فى طلب البقاء !

كذلك تظل هناك نقطة لاينبغى أن تضيع بضعف الذاكرة أو بالتجاهل ، وهى أن فكرة « المبادرة الفردية » لم تستطع تحقيق ماحققته إلا بعد أن استعارت كثيرا من المبادئ والتوجهات من فكرة « التنظيم الاجتماعى » وأولها بالطبع نظام الرفاه الاجتماعى (من حق التعليم إلى حق العلاج إلى

حق التأمين) ـ ثم أنها علاوة على ذلك أخذت من فكرة « التنظيم الاجتماعى » ضرورة تدخل الدولة ونظام القطاع الحكومى والعام . وعلى سبيل المثال فإن المعجزة اليابانية داخلة فى تخطيط الدولة اليابانية وخاضعة لتوجيهها وإشرافها . ولعل كثيرين لاينسون أن القطاع الحكومى والعام فى أمريكا وما فى حكمه مثل مؤسسات الطاقة النووية والسلاح والفضاء (وهذه كلها سلع لايشتريها أحد غير الدولة مباشرة أو بالواسطة) ـ يبلغ حجم العاملين فيه ٥١٪ من قوة العمل الأمريكية !

٢ ـ إن الأزمة المستحكمة فى الاتحاد السوفيتى ـ وفيما حوله من بلدان أوروبا الشرقية ـ جاءت فى الواقع من نتائج الخلط بين « العقيدة » و « السلطة » فحين أصبحت العقيدة سلطة والسلطة عقيدة (لها قدسية التنزيل !) وبدون إمكانية من أى نوع للحوار والمنافسة مع الآخرين ، وبما يعنيه ذلك من إمكانية تداول الحكم ـ كانت النتيجة هى ما رأيته ورآه غيرى فى الاتحاد السوفيتى ـ وما يراه العالم كله الآن فى أوروبا الشرقية ، وأهمه ماجرى فى بولندا ـ مع تحفظى على بعض الملابسات هناك ـ ثم فى المجر ، وأخيرا فى ألمانيا الشرقية . والحاصل إنه إذا جاز للعقائد أن تكون مطلقة ، فإن السلطة يستحيل أن تكون كذلك وإلا جاءت القارعة !

٣ ـ إن التناقضات الاجتماعية ـ على اتساع العالم ـ مازالت قائمة لم تنته ولا انتهى التاريخ ، ولكن هذه التناقضات لم تعد محصورة ـ كما كان فى الماضى ـ فى إطار دول وسياسات . لم تعد أمريكا قلعة فكرة « المبادرة الفردية » وإنما شاعت هذه الفكرة وتوزعت على مراكز متعددة خارجها (ومن هنا ربما كانت استجابة « بوش » بعد تردد للاجتماع سريعا مع « جورباتشوف » قبل أن يصل تداعى وتفاعل الأحوال فى الاتحاد السوفيتى إلى نهاياته على النحو الذى كان ينصح به أقصى اليمين فى واشنطن) .

كذلك لم يعد الاتحاد السوفيتى هو كعبة فكرة « التنظيم الاجتماعى » كما كان

الحال خلال عقود ، وإنما خرجت هذه الفكرة من سجن اختلاط السلطة بالعقيدة ـ إلى عالم أوسع وأرحب تبحث لنفسها عن إجابات جديدة فى عالم أشد تعقيدا من أن تنحصر حركته بين مركزين أحدهما فى واشنطن والثانى فى موسكو ـ وبين فكرتين أولاهما من صياغات القرن الثامن عشر ، والأخرى من مطروقات القرن الذى تلاه ـ القرن التاسع عشر !

٤ ـ إن التناقضات الباقية من عصر سابق وكذلك التناقضات المستجدة من عصر جديد ليس محكوما عليها أن تمارس حركتها بنفس الوسائل التى عرفها وألفها الناس حتى الآن رغم مخاطرها : الحرب الساخنة أو الحرب الباردة . أو الثورة الدموية أو الانقلاب العسكرى . والحقيقة أن المشهد الذى يجرى فى برلين الآن يقدم نموذجا مستجدا فى ممارسة التناقضات . فإن ألمانيا الغربية التى كانت تزعج ألمانيا الشرقية بمقولة أنها وطن مفتوح لكل ألمانى ـ تجد نفسها الآن مفاجأة بمئات ألوف من جحافل الشرق تفتحت لهم الأبواب ، والجدران أيضا . وذلك عبء على كل نواحى الحياة لم تكن « بون » مستعدة له ، وعليها هى الآن أن تبنى حوائط جديدة ... على الأقل حواجز ... توقف أو تنظم تدفق التيار حتى يستعد من يعنيهم الأمر لملاقاة فيضانه ، أو هو الغرق !

* * *

وكان السؤال الذى ألح على « لينين » هو : « ما العمل ؟ » ـ وقد كتب تحت هذا العنوان كتابا بأكمله . وأظن أن نفس السؤال مازال يواجه « جورباتشوف » بعد سبعين سنة .

ما العمل ؟ ـ والمشكلة أن « جورباتشوف » لا يستطيع أن يكتب فيه كتابا . وإنما يلزمه شىء آخر ؟ !

تاريخ روسيا والنماذج الثلاثة المستحيلة التى يقدمها لـ « جورباتشوف »

مستقبل الزعيم السوفيتى والخيارات الثلاثة المطروحة أمامه

طوفان الثلوج الذائبة وشكل العالم بعده !

(٤)

عندما وصل « ميخائيل جورباتشوف » إلى القمة فى الكرملين ، وأطل لأول مرة على صورة الحقيقة كاملة ، وفزع مما رآه واستهول نتائجه الداهمة ـ كان طبيعيًا أن يكون مصدر إلهامه التلقائى هو تاريخ روسيا . وذلك منطق ، فكتاب التاريخ فى أى بلد لابد أن يكون مرجعًا متاحًا باستمرار لكل جيل من أجيال هذا البلد لأن للتاريخ قوانين فاعلة باستمرار ، رغم تغير الحوادث باختلاف الظروف وتلاحق الأزمنة .

وفى الشهور الأولى من حكمه بدا أن « ميخائيل جورباتشوف » حائر بين نموذجين شهيرين من تاريخ روسيا :

أولهما : **نموذج « ايفان الرهيب »** . قيصر روسيا المخيف فى القرن السادس عشر ، والذى بلغ من قسوته أنه قتل ابنه الأمير « سيرجى » بضربة من هراوة حديدية فوق رأسه ، ثم ظل بقية الليل جالسًا بجوار جثته يبكى آنًا ويضحك آنًا آخر ويحتسى الخمر دون توقف . وربما من هنا أنه ـ فى حين أن مؤرخى العالم يصفون « ايفان » بـ « الرهيب » ، فإن المؤرخين السوفيت يختارون له وصفا وسطا بين « الرهيب » و « الحزين » .

وبمقتضى نموذج « ايفان الرهيب » ـ فإن « جورباتشوف » كان عليه أن يعيد مأساة « ستالين » بطريقة أكثر ضراوة وأقسى ظلمًا ، وأن يقمع ويقهر ويرد رياح

التغيير على أعقابها ، ويمسك بالأمر الواقع ولو بسطوة النار والحديد

وبدا لـ «جورباتشوف» أن الحل بوحى نموذج «ايفان الرهيب» ــ معاد لطبيعته وطبيعة الظروف وطبائع العالم والعصر ــ وعلى وجه اليقين فإنه لم يقترب منه بالمحاولة ، ولعله لم يقترب منه بمجرد الفكر أو الظن !.

وثانيهما نموذج « بطرس الأكبر » قيصر روسيا المستنير والذى جاء بعد «ايفان الرهيب» بقرن كامل ، وإليه وحده يعزى الفضل فى بناء روسيا الحديثة . فقد ثار « بطرس » على المجتمع القبلى المتخلف الذى وجده فى وطنه حين اعتلى العرش شابًا متفتحًا بالأمل . وسافر بنفسه إلى عواصم النهضة فى أوروبا . وشاهد ودرس ، وعاد محملاً بأجهزة وآلات مما استوقفه ، وراح بيديه يعمل وينظم ويلهم ، وأحس أن «موسكو» شرقية بأكثر مما هو لازم ، وقرر نقل العاصمة إلى مكان آخر ، يطل على البحر الذى بدا له صلة مباشرة بعوالم النهضة ، فى حين أن البر عزلة وحصار . وهكذا ذهب إلى أقصى الشمال فى روسيا واختار موقع قرية للصيد ، وخط بعصاه خطا وقال : «هنا» . وكان ذلك هو الموقع الذى نشأت فوقه مدينة «بتروجراد» أو «بطرسبرج» ــ «مدينة بطرس» والتى تحولت فيما بعد وإلى الآن إلى «لينجراد» أو «مدينة لينين» .

وحتى اليوم تقف مدينة «بتروجراد» أو «بطرسبرج» أو «لينينجراد» ــ كشاهد على عبقرية «بطرس الأكبر» وتشوقه إلى التحديث والتجديد ، وانفتاحه على تيارات الحضارة الانسانية المضيئة والباهرة .

والواقع أن «بطرس الأكبر» لا يزال بطلاً فى الاتحاد السوفيتى حتى بعد الثورة . وعندما يدخل الزائر إلى كنيسة «بيترو بافلوفسكى» وهى الكنيسة التى تضم رفات قياصرة روسيا فى مدينة لينينجراد ــ فإنه يجد الزهور على قبر ذلك القيصر المستنير تتجدد كل يوم ، وأما غيره من الملوك (والأمراء) وهم يرقدون فى إحدى وستين مقبرة رخامية مزينة بالذهب ــ فإن كل ما بقى لهم هو ساعة كبيرة معلقة فوق رؤوسهم ، تعزف نشيد الثورة (الانترناسيونال) مرة كل ست

ساعات كأنها تطاردهم بالكيد حتى فى سكون الموت وصمت الأبدية !.

وعلى أى حال وبمقتضى نموذج «بطرس الأكبر» ــ فإن «جورباتشوف» كان عليه أن يهرع إلى الآفاق المفتوحة للفكر والعلوم والتكنولوجيا ثم يضخ إلى روسيا كل ما يمكن ضخه إليها ، وفى نفس الوقت يفتح الأبواب جميعها ويزيل الأسوار والستائر حريرية كانت أو حديدية حتى تهب الرياح الجديدة وتكسح كل قديم ، حتى روائح التكدس والركود والرطوبة ــ وهى مازالت تفوح فى روسيا حتى الآن

وبدا لـ «جورباتشوف» على أرجح الظنون أن نموذج «بطرس الأكبر» قفزة إلى المجهول ، خصوصًا وأن العصور مختلفة وأن الذين يملكون زمام الفكر والعلوم والتكنولوجيا ليست لديهم نية تسهيل انتقالها من الغرب إلى الشرق لأسباب عديدة يرونها !.

* * *

وبين نموذج «**ايفان الرهيب**» ونموذج «**بطرس الأكبر**» تعطل «**ميخائيل جورباتشوف**» لبعض الوقت يوازن خياراته ويحسب خطواته .

وبدا لى فى عواصم أوروبية غربية ــ ثم فى موسكو نفسها بعد ذلك ــ أن «**جورباتشوف**» شغل نفسه ــ والآخرين ــ فى الوقت الضائع بنموذج ثالث من تاريخ روسيا ، وهو نموذج «**كاترين العظيمة**» التى تولت العرش بعد «بطرس الأكبر» بعدة حقب .

وكانت «كاترين العظيمة» موهوبة فيما نسميه الآن «فنون العلاقات العامة» . وكانت «كاترين» قيصرة مقبلة على الحياة ، كثيرة العشاق كذلك كانت مغرمة بفن المراسلات وهى أيامها بديل عن الصحافة والتليفزيون الآن . وكان أشهر من راسلتهم فيلسوف فرنسا العظيم «فولتير» الذى دعته إلى «بطرسبرج» فاكتفى بارسال أحد تلاميذه بدلاً منه ولم تيأس «كاترين» وإنما

وقفت أمام تمثال نصفى لـ «فولتير» وضعته فى قصرها ، ثم قالت لتلميذه الذى جاء نيابة عنه :

ـ «هذا هو الرجل الذى أدين له بكل.ما أعرف وبكل ما وصلت إليه» .

وبدوره رد «فولتير» على هذا الثناء العاطر بثناء مثله وصف فيه «كاترين العظيمة» بأنها «سميراميس الجليد الشمالى» ـ يشير بذلك إلى الملكة الآشورية الأسطورية «سميراميس» التى قيل أن اليمام كان يطعمها طفلة ثم تحولت هى نفسها فى نهاية عمرها إلى «يمامة» تحلق باجنحتها جميلة وحرة فى آفاق السماء !.

وكان «فولتير» يدلل «كاترين العظيمة» بأن يسميها «كاتو» ـ على وزن «جاتو» ـ وهو الحلوى المعروفة . ولفظ «كاتو» قريب بالايقاع من لفظ «جوربى» ، وهو وصف التدليل الذى أطلقه ساسة الغرب وصحف الغرب وجماهير واسعة فى الغرب استجابة لحملة علاقات عامة بارعة قام بها «جورباتشوف» .

* * *

كان نموذج «ايفان الرهيب» مستحيلاً . ولم يكن نموذج «بطرس الأكبر» ممكنا . ثم أن نموذج «كاترين العظيمة» كان ـ بحكم الظروف ـ مؤقتًا وغير قابل للاستمرار إلى الأبد . فالعالم كله ينتظر ، وأهم من العالم فإن شعب الاتحاد السوفيتى كان قبل الكل ينتظر !.

والسؤال الذى واجه «لينين» من قبل وصاغه فى عبارته الشهيرة : «ما العمل ؟» ـ عاد الآن يلح على «جورباتشوف» ويفرض عليه ما أسماه «هنرى كيسنجر» : «ضرورة الاختيار» ؟

وهكذا ، راح «ميخائيل جورباتشوف» يتحرك بهدوء وحذر .

□ **فى البداية** : طرح ما أسماه هو برنامج «التسريع» ـ أى سرعة الانجاز وزيادة النشاط فى كل مناحي الانتاج والخدمات ـ باعتبار أن الاتحاد السوفيتى

يملك من الموارد والمصادر ما يكفيه ، وأنه إذا «أسرع» فى السير و «أسرع أكثر» ـ استطاع فى ظرف سنتين أو ثلاث على الأكثر أن يحل أزماته المستعصية .

وما لبث «جورباتشوف» أن أدرك بعد قليل أن الضغط على مفاتيح السرعة ليس كافيًا لتحقيقها ، لأن الأمة فى حاجة إلى تغيير شامل وإلى وقود معنوى ومادى وإلى «تكنولوجيا» لا تتوافر فى الاتحاد السوفيتى !

□ **وفى الحركة التالية** توجه «جورباتشوف» بنداء من نوع مختلف . كان يريد تحويل الوقود الضائع فى الآلة العسكرية السوفيتية الهائلة إلى مجال آلة الإنتاج المدنى ، خصوصًا فى السلع الاستهلاكية . ودوت صيحته بأن سباق السلاح يعرض الدنيا إلى كوارث بغير حدود ، وأنه «عالم واحد أو لا عالم على الاطلاق» .

وعندما كنت فى موسكو تحدثت مع أحد المساعدين المقربين من «جورباتشوف» ، وكان يشكو من أن الآخرين لم يقدروا اخلاص هذه الصيحة التى أطلقها «جوربى» ـ وكان ردى عليه :

ـ «لأن الآخرين سمعوها مرات من قبل . أنا شخصياً سمعتها من «آينشتين» عام ١٩٥٢ . ثم قرأتها بتعبير آخر فى خطاب بعث به إلىّ «برتراند راسل» سنة ١٩٦٤ ـ وهى إذن صيحة لا تحمل أى جديد ، ولم يكن فى مقدورها أن تقنع أحدًا بجديد طرأ فى الاتحاد السوفيتى» .

ولم يبد على مساعد «جورباتشوف» أنه اقتنع بأن شعار «عالم واحد أو لا عالم على الاطلاق» هو صدى متأخر لأصوات مبكرة !.

□ **وفى الحركة الثالثة** : حاول «جورباتشوف» أن يشد التفات الآخرين إلى نظرية مبتكرة تبشر بـ «توازن المصالح بدلاً من توازن القوى» ـ ولم يلبث كثيرون أن اكتشفوا أنه ليس هناك توازن للمصالح فى عزلة عن توازن القوى . فما يحقق المصالح ويؤكدها ليس التطوع الخيرى للأطراف ، وإنما إحساسهم أن

تلك المصالح وراءها من القوة ما يعزز مطالبها .

□ **وفى الحركة الرابعة** : راح «جورباتشوف» يتحدث عن «**بيت أوروبى واحد**» لابد من اقامته بالتعاون بين غرب أوروبا وشرقها ، بما فى ذلك حرية انتقال التكنولوجيا ورؤوس الأموال – ومرة أخرى لم يجد الآخرون فيما يقول به «جورباتشوف» أى جديد – ذلك أن فكرة «البيت الأوروبى الواحد» ترجع أساسًا إلى الجنرال «شارل ديجول» الذى كان يتحدث عن «**أوروبا الواحدة من شواطئ الأطلنطى إلى جبال الأورال**» . وعلى أى حال فقد تبين أن «رسوم البيت الأوروبى الواحد» ليست جاهزة لدى أحد . ثم أن هناك كثيرين فى أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية – اعتبروها محاولة للتفريق بين جانبى الأطلنطى ، وهى فى هذه الظروف نوع من الوقيعة ... أو فخ لن يقع فيه أحد !.

كان الآخرون – على ما يظهر – مصممين على انتظار «جورباتشوف» حتى يعترف بالواقع السوفيتى عاريًا كما ولدته أمه (ظروفه التاريخية والواقعية) !.

* * *

وفى تلك الفترة وبالتحديد يوم ٢٩ ابريل ١٩٨٦ – بعد سنتين على صعود «جورباتشوف» فوق القمة فى الكرملين – وقعت كارثة مفاعل «تشرنوبل» – وفيما يبدو فإن تأثيرها كان حاسمًا فى تفكيره . بعد «تشرنوبل» أدرك «جورباتشوف» – كما ظهر من تصرفاته – أن عليه مواجهة الحقيقة رأسًا برأس وبغير حاجة – ولا وقت – للالتفاف أو الدوران حولها .

وفى تلك اللحظة أعلن سياسة «**البيروسترويكا**» (إعادة البناء) ومعها سياسة «**الجلاسنوست**» (سياسة الكلام بصوت عال ، ومصارحة النفس والآخرين) .

كانت سياسة «الجلاسنوست» سهلة ،ولو نسبيًا . فهى كلام واعترافات وحقائق تقال دون حرج . ونقد ، ونقد ذاتى . وكشف أسرار .

وكانت العقدة المستعصية هى «البيروسترويكا» (إعادة البناء) . فهنا لم تكن الأمور خطابة وصحافة واذاعة وصورًا على التليفزيون .

هنا كانت العقبات طابورًا أطول من الطابور الواقف فى صبر ينتظر أمام ضريح «لينين» ، أو أمام محل يبيع الفودكا .

وكانت أبرز العقبات على النحو التالى :

١ – تكوين الشعب السوفيتى ، وقد تأثر كثيرًا بنظام العبودية (وهو أسوأ من الاقطاع فى أوروبا الغربية) – وبمقتضاه فإن «أقنان الأرض» (أى عبيدها – كما تسميهم الأدبيات الماركسية فى الترجمات العربية) – كانوا قد تركوا كل مصائرهم للأمير أو للسيد . يعطونه عملهم . ويعطيهم طعامهم . ومن الغريب أنه عندما مات «ستالين» بعد أربعين سنة تقريبًا من الثورة ، كانت تجمعات الباكين الحزانى فى جورجيا تصيح بعبارة : «مات الذى كان يطعمنا» !.

كان السيد «الحزبى» – مازال هو الذى يطعم بدلاً من السيد «الأمير» !.

وزاد على ذلك أن صور بعض «السادة» من الحزبيين شوهتها الحقائق التى ظهرت بعد موتهم . «ستالين» مجرم . «خروشوف» مهرج . «بريجنيف» أفاك !.

ونتائج هذا كله أن الشعب السوفيتى حتى الآن مازال يتكلم على أساس «الجلاسنوست» . وأما «البيروسترويكا» فإنه وقف ينتظر ما يفعله بها «جورباتشوف» .

ويحكى الرئيس «ميخائيل جورباتشوف» لاصفيائه قصة أسطورة صينية قرأ عنها أو شاهدها مرة على المسرح . قصة قرية كان يروعها تنين مخيف يسكن أحد الكهوف القريبة منها . ثم تقدم شاب بطل من ابناء القرية ذات يوم فقتل التنين وطلب إلى أهل القرية أن يخرجوا من مخابئهم ، ولكنهم ترددوا ثم قالوا له : «إنك قتلت التنين ، ومعنى هذا أنك أقوى منه ، وإذن فحق علينا أن نخاف منك أكثر مما كنا نخاف من التنين» . وصاح الشاب فى وجوههم : «إن التنين يسكن فى قلوبكم ... إن الخوف داخلكم ، وكان هناك دائمًا ولم يكن فى التنين» !!.

٢ ـ تكوين الحزب الشيوعى السوفيتى ، وهو تنظيم يمسك بمفاتيح الحياة فى الاتحاد السوفيتى كله، وقد تحول إلى نقابة منتفعين اقنعت نفسها وفرضت على الباقين أن حزب الطبقة العاملة هو «مستودع الحكمة الجماعية للشعب» . وكان ذلك فى واقع الأمر تغطية لسلطة ـ ولامتيازات مع السلطة لا يريد الذين احتكروها طويلاً أن يتنازلوا عنها الآن أمام صرخات الذين يمارسون «الجلاسنوست» مهما علت هذه الصرخات أو تجاوبت فى الآفاق أصداؤها .

وقيادات الحزب ، وهذه مع الأسف نتيجة الخلط بين السلطة والعقيدة ـ أرادت أن تحتفظ بامتيازاتها نوعًا من الملكية تقريبًا . ولما لم يكن فى استطاعتها تعديل قوانين الملكية ـ فإنها اخترعت بديلاً لها أبدية البقاء فى المناصب .

وترتب على ذلك أنه فى حين أن سياسة «الجلاسنوست» محتملة من هؤلاء على مضض ـ فإن سياسة «البيروسترويكا» كان لابد من تعطيلها وتعويقها .

وهكذا فإن المقاومة ضد «جورباتشوف» لم تعد تصطدم بسلبية الجماهير السوفيتية فحسب ، وإنما بمعارضة صريحة من عناصر مستحكمة داخل مناصب الحزب ... وبالطبع داخل مناصب الدولة .

ولقد سارع البعض خفافاً بتغيير جلودهم وشاركوا فى «الجلاسنوست» ـ ولكن قلة قليلة فقط ومحيطة بـ «جورباتشوف» شخصيًا هى التى شمرت عن أكمامها وراحت تجرب «البيروسترويكا» .

٣ ـ ولكن « البيروسترويكا » لاتحتاج إلى اخلاص القلة فقط ، وإنما تحتاج أكثر إلى توفير استثمارات بلا حدود ، وإلى عملية نقل ونشر لتكنولوجيا الإنتاج الحديثة ، وهذه جميعا ليست فى الانتظار عند أول منحنى على الطريق .

ذلك أن توفير الاستثمارات من الداخل يقتضى عمليات جراحية تقتطع من ميزانية القوات المسلحة أو من مخصصات الزراعة والطاقة. ثم أن توفير مثل هذه الاستثمارات من الخارج يشترط مقدما ضمانات تبدو لأول وهلة متعارضة العقائد.

وأما نقل ونشر التكنولوجيا فحكاية أكثر تعقيدا لأن الغرب ـ وهو مالك مفاتيحها ـ مازال يضع القيود على كل شىء ابتداء من أنواع معقدة من آلات التصوير إلى طرز مركبة من العقول الالكترونية .

وفى وقت من الأوقات جرب الاتحاد السوفيتى « سياسة » سرقة بعض أسرار التكنولوجيا . وفى سنوات مبكرة من الثمانينيات كانت تلك هى المهمة الأولى لجهاز أمن الدولة والحزب ، وهو الـ «كى . جى . بى » ـ لكن السرقة يصعب أن تكون سياسة ـ ! ـ خصوصا لدولة عظمى ، وإنما يتحتم على الاتحاد السوفيتى أن يدخل مجالات التبادل الحر والخلاق فى العلوم الحديثة .

٤ ـ والمشكلة بعد ذلك أن « شرعية » جورباتشوف من أساسها هى « شرعية لحظة تاريخية » . فهى ليست شرعية طبقة ، وليست شرعية توافق وطنى ، وليست شرعية انجاز تاريخى محدد ، وإنما هى شرعية أمل .

والمأزق أن « شرعية الأمل » فوق أرتهانها بلحظة ، ترتبط أيضا بتحقيق هذا الأمل أو بخطوات محققة على طريقه .

إن سياسة « الجلاسنوست » ايقظت آمالا نائمة وحقائق ظلت مخدرة لزمن طويل . وهى ليست آمالا وحقائق اقتصادية واجتماعية فحسب ـ وإنما هى آمال وحقائق تصل إلى تطلعات قومية ووطنية ودينية وطائفية فى امبراطورية تتكون من مائة عنصر مختلف حشرت كلها ـ على الاختلاف مابينها ـ فى اطار واحد امبراطورى . ثم عقائدى . ثم سلطة دولة . وقد تهاوى الاطار على المستويات الثلاثة بواقع المشاكل أولا ، ثم بطارئ « الجلاسنوست » ثانيا !

يضاف إلى ذلك أن « جورباتشوف » رجل يتصرف بمنطق واتزان ، بينما الروسى العادى يريد من حاكمه أن يكون نصف متوحش ونصف إله ـ وتلك بين ضمانات استمرار شرعيته !

* * *

والسؤال الذى يواجه أى زائر باحث عن الحقيقة فى الاتحاد السوفيتى ، وهو سؤال مروع وإن بدا بسيطا ، هو :

ـ « ثم ماذا بعد ؟» .

وفى الإجابة على هذا السؤال ، خصوصا فى الدوائر الدبلوماسية الأجنبية فى موسكو ، تبرز ثلاثة « أشكال للمستقبل » ـ أو « سيناريوهات » كما يقال .

السيناريو الأول : أن ينجح « جورباتشوف » . فإذا استطاع أن يحتفظ بموقعه على القمة فى الكرملين ، وتقدم الغرب للتعاون معه باخلاص وثقة فى صدق نواياه ـ فإن الأزمة يمكن اجتيازها فى فترة عشر سنوات أو خمس عشرة سنة .

وهناك كثيرون يتشككون فى امكانيات النجاح حتى بعد مثل هذه الفترة الطويلة . وقد لقيت فى فندق « سافوى » وفدا من رجال الأعمال اليابانيين ، وكان بينهم واحد عرفته من قبل فى طوكيو . وجلست معهم ، وفوجئت برئيس وفدهم يقول لى صراحة :

ـ « لقد كنا نظن أن الاتحاد السوفيتى متخلف عن اليابان عشرين سنة ، ولكننا عندما جئنا ورأينا على الطبيعة ادركنا أنه متخلف إلى الأبد » !

وربما كان الحكم قاسيا ومطلقا على علاته ـ لكنه كفيل بأن يعطى صورة لرأى هؤلاء الذين ينتظر منهم أن يتعاونوا مع الاتحاد السوفيتى الآن وغدا !

والمأزق الذى يواجه « جورباتشوف » يتلخص فى أنه يحاول « إعادة البناء » من جديد بواسطة ماتبقى من أطلال النظام القديم ـ فعدا الفكر ليست هناك مواد جديدة . ولا موارد . ولا بشر من خارج الحدود !

يضاف إلى هذه العناصر عنصر آخر هو أن سياسة « الجلاسنوست » (الكلام بصوت عال) تضرب فى النظام كله بصرف النظر عن أية تقسيمات بين الفترات والعصور ، وهذا يؤدى إلى تآكل ونحر قوائم الشرعية تساعد عليه مشاكل الساعة واللحظة .

وكان هذا العنصر بالذات موضع نقاش بين « جورباتشوف » وعدد من كبار مستشاريه كان رأى بعضهم أن تبدأ عملية إعادة البناء قبل أن تتفتح أبواب المصارحة ، بحيث تجىء المصارحة وفى السوق سلع وخدمات . أما إذا جاءت المصارحة وليس فى السوق سلع أو خدمات ، فإن موجة المد العاتى لها سوف تكتسح الحاضر والمستقبل أيضا دون أن تجد ما يوقفها عند حدود البارحة .

وكان من رأى بعض مستشارى « جورباتشوف » أن التجربة الصينية أكثر حكمة ، فهناك رأى الزعيم الصينى « دينج » أن يبدأ بفتح أبواب الحرية الاقتصادية ثم يجىء الدور بعدها على الحرية السياسية .

وسمعت فى موسكو تفاصيل المناقشات التى دارت فى الكرملين حول الخيارين ، وقال لى أحد أعضاء اللجنة المركزية :

ـ « فى الصين اعطوا حرية اقتصادية أكثر خمس مرات مما اعطينا نحن هنا ، ونحن هنا اعطينا حرية سياسية أكثر خمس مرات مما اعطوه فى الصين ، والنتيجة أن الأحوال عندنا سائلة . والأحوال عندهم أكثر تماسكا » .

وكان رأى « جورباتشوف » أن النتائج تستوى فى الحالتين : فالحرية الاقتصادية لابد أن تواكبها حريات ديمقراطية أوسع . والحرية السياسية لابد أن تتوافر لها سلع وخدمات أكثر . وكان ظنه أن الحرية السياسية متاحة على الفور ومن الأنسب فتح الأبواب لها بغير انتظار حتى وإن زادت احتمالات التعرض !

(الصورة مختلفة بعض الشىء فى المجر وألمانيا الشرقية وحتى بولندا . فهناك درجة من النمو الاقتصادى تستدعى بشدة أن تلحقها درجة من التطور السياسى خاصة فى مجالات حرية التعبير والتجمع والانتقال ... وربما من هنا أن حركة تدفق التيار أسرع) .

والسيناريو الثانى : ألا ينجح « جورباتشوف » بمعنى أن يزاح من السلطة ويستبدل بغيره من اقطاب الكرملين . وسوف تكون هذه عقدة مستعصية لأن

أحدا لايستطيع ببساطة أن يعيد الغطاء إلى الإناء الذى يغلى . وبالتالى فإن أى خلف لـ « جورباتشوف » محكوم عليه بأن يواصل نفس سياسته حتى فى غيابه . وإذن فهى السياسة قبل الرجل الذى أصبح اسمه علما عليها .

وألا تنجح هذه السياسة ، فتلك هى القارعة ذاتها . وأول مايترتب عليها هو انقسام الاتحاد السوفيتى إلى دول أو دويلات على أسس قومية وعرقية ودينية . ثم أن حروبا أهلية ستقع لا محالة ، بل إن هناك مقدمات لها بدأت فعلا وحتى فى ظل وحدة الدولة السوفيتية . ونموذج لها مايحدث بين « ارمينيا » و « اذربيجان » ، وهو خليط من صراع وطنى ودينى تتكرر أمثاله فى الموزاييك الامبراطورى الذى ورثته الثورة الشيوعية .

والغريب أن الاتجاه الوطنى المتعصب يظهر الآن أكثر ما يظهر فى جمهورية روسيا ذاتها ، فقد زاد فجأة دعاة القومية الروسية ـ الذين استنفرتهم دعاوى القوميات الأخرى ـ وظهر بينهم من « يرون » أن روسيا نفسها وسكانها حوالى ١٢٠ مليون نسمة ، أى نصف الامبراطورية ـ هى أمة واحدة متجانسة وقوية . وهى أوروبية . وتستطيع أن تجد نفسها ومكانها ودورها بدون الحاجة إلى كل هذا الخليط من القوميات والطوائف والأديان .

ومعنى ذلك وغيره أن خريطة أوروبا كلها ـ شرقا ووسطا أيضا ـ معرضة لإعادة رسمها من جديد بكل ما يترتب على ذلك من أهوال تنصب لهبا وحريقا فوق توازن القارة من جبال الأورال إلى شواطئ الاطلنطى ـ على حد تعبير « ديجول » !

يبقى السيناريو الثالث : وهو الشبح المجهول الذى يتمثل فى احتمال تدخل القوات المسلحة السوفيتية للحفاظ على تماسك الدولة السوفيتية ، وتلك مهمة أى جيش فى ظروف أزمات الأوطان ، وحتى الامبراطوريات !.

والقوات المسلحة فى روسيا ـ هذه اللحظة ـ فى حالة معنوية قلقة ، وهنا خطرها .

وأسباب القلق كثيرة تبدأ من أن شابا ألمانيا مراهقا (« ماثيوس راست » يوم ٩ مايو ١٩٨٧) استطاع أن ينفذ من كل الدفاعات الجوية السوفيتية ويخترق الاتحاد السوفيتى من حدود السويد إلى موسكو ، وينزل هناك دون أن يتعرض له أحد ـ وهى قصة مشهورة أدت إلى عزل قائد الدفاع الجوى السوفيتى من منصبه .

وتنتهى بأن القوات المسلحة السوفيتية ـ بجلالة قدرها ! ـ عجزت عن تحقيق انتصار فى افغانستان ، حتى وإن كان قرار التدخل الأصلى فى افغانستان جرى اتخاذه ارتجاليا وعشوائيا !

وبرغم هذه الحالة القلقة فإن القوات المسلحة للاتحاد السوفيتى تعتقد أنها ادت للدولة مجموعة انجازات ضخمة وحقيقية :

١ ـ هى التى انتصرت فى الحرب العالمية الثانية واعطت للاتحاد السوفيتى مكان ومكانة إحدى القوتين الأعظم .

٢ ـ وهى التى دخلت مجالات الفضاء والطاقة النووية ، وبذلك فتحت هذا العصر للاتحاد السوفيتى .

٣ ـ وهذا الموقع ـ موقع المساواة فى القوة مع الطرف الآخر ـ هو الذى جعل الوفاق أمرا ممكنا .

٤ ـ وأخيرا فهى الآن تساعد قدر ماتستطيع فى الصناعات المدنية ، فقد حولت الكثير من مصانعها بحيث يلبى حاجة الناس إلى سلع استهلاكية .

ورد الآخرين على ذلك بالطبع سهل ، وهو أن القوات المسلحة وهى تفعل ذلك كله لم تدبر له من عندها مايلزمه ، وإنما اقتطعته اقتطاعا من دخل الأمة .

وتعاقب على قيادة القوات المسلحة ثلاثة فى السنوات الأخيرة : الماريشال « أجاركوف » ، ثم أبعد إلى الظل ، وتلاه الماريشال « اخراميف » ، وبدوره هو الآخر خطا إلى الظل . والآن على رأس القوات المسلحة السوفيتية جنزال

وليس ماريشال ، وهو من سلاح « الامداد والتموين» وليس من أسلحة القتال ، وتلك مظاهر أخرى تشير إلى حالة القلق !

والأكثر إثارة للقلق أن الشعب السوفيتى يسمع هذا كله ويواصل أحاديث « الجلاسنوست » مطعمة بالسخرية :

• يروى الناس كلهم « قصة » رجل ذهب يسأل عن اختصاصى يعالجه . وطلب اختصاصى أذن وعين . وقيل له أن هذا الاختصاصى غير موجود ، فهناك اختصاصى أنف وأذن وحنجرة ، وهناك اختصاصى عين ، وكلاهما فرع من الطب مستقل ، واصر الرجل على مايريد ، وسألوه : « لماذا ؟» ـ وقال : « لأن مرضى أننى اسمع شيئا وأرى شيئا غيره » !

• و « قصة » أخرى ، هى أن « جورباتشوف » التقى بزائر أجنبى . وقال الزائر الأجنبى للزعيم السوفيتى أنه لا يعرف غير كلمة واحدة من اللغة الروسية وهى كلمة « فودكا » .

وسأله « جورباتشوف » : « ألم تسمع بكلمة بيروسترويكا » ؟.

ورد الزائر الأجنبى قائلا : « الحقيقة ـ سيدى الرئيس ـ أننى لست خبيرا باصناف المشروبات الروسية ، ولا أعرف منها إلا الفودكا » !

ولهذه القصص وغيرها دلالات خطيرة ، أهمها أن هناك مقدمات لأزمة ثقة بين الشعب السوفيتى وقيادته الجديدة ، فالقصص التى تروى فى موسكو فى معظمها لها معان واضحة لايخطئها الفهم . وبين معانيها أن الناس يراودهم شك أن الجديد فى حياتهم كله « كلام » ـ أو أن الجديد فى حياتهم تسمعه الأذن على نحو ، وتراه العين على نحو مغاير ـ أو أن هذا الجديد مشروب مسكر يجىء بالنشوة دقائق ثم يتلوها بالصداع ساعات !

وفى التعليق على مجمل هذه الأحوال قال لى دبلوماسى غربى رفيع المستوى تحدثت معه طويلا فى موسكو ـ تعبيرا لعله من ادق ماسمعت فى موسكو من

أوصاف للمزاج الفكرى العام ـ قال :

ـ « إن الاتحاد السوفيتى يواجه الآن حالة « لبننة » (من لبنان) ، وحالة « اللبننة » هذه ظاهرة فى الفكر ولم تنتقل منه إلى الواقع . وإذا حدث هذا الانتقال فإن عواقبه ستكون أكثر مما يستطيع العالم تحمله » .

* * *

ويتبقى فى الحديث عن « جورباتشوف » سؤال لعله يطرح نفسه حتى قبل أن يطرحه أحد ، وهو أنه « إذا كان ذلك هو مجمل الأحوال فما الذى يعتمد عليه « جورباتشوف » والقاعدة التى يقف عليها ، والقوى التى تسانده ؟» .

وأظن أن أى إجابة متأنية عليه سوف تجد نوعين من الإجابات :

□ **النوع الأول داخلى ـ** أو سوفيتى ـ وهو صبر الشعب الروسى ورصيده منه كبير ، وآمال الشعب السوفيتى مازالت حية مثل نار تحت الرماد ـ وإلى جانب ذلك فإن أى فرد أو مؤسسة تريد تحدى « جورباتشوف » سوف تجد نفسها وارثة مضطرة لسياساته ونتائجها المحتملة . فهذه السياسات لم يعد ممكنا الرجوع فيها ، ولا إعادة الأمور بشأنها إلى حيث كانت . ومعنى ذلك أن أى خلف لـ « جورباتشوف » سوف يجد نفسه أسيرًا لسياساته ، وهذا يرد كثيرين فى الكرملين حتى الآن عن انقلابات القصور والقلاع ! ـ ولـ « جورباتشوف » فى ذلك وصف تصويرى دقيق ، فهو يقول : «إن معجون الأسنان يخرج من الأنبوب بالضغط عليه . ولكن أى ضغط لا يستطيع إعادة المعجون الذى خرج إلى الأنبوب مرة أخرى » !.

وهو تجديد « تكنولوجى !» فى حصيلة القيادات السوفيتية يختلف عما كنا نسمعه من أجيال أسلافهم ، وكانت فى معظمها متأثرة بتجربة الحياة فى المصانع والمزارع أو خنادق الحرب العالمية الثانية !

هذه العوامل وغيرها فى الداخلى تعطى لـ « جورباتشوف » وقتا وسعة مجال للحركة .

□ **والنوع الآخر من الإجابات خارجى** ـ أى دولى ـ وهذا هو الميدان الأكبر الذى يمارس فيه « جورباتشوف » حركته التى تخطف الأبصار :

١ ـ إن « جوربى » قدم نفسه للعالم شخصية جذابة . منفتحة على العوالم والعصور . وتملك شجاعة الخيال والفكر والعمل معا ، وقد بلغت شعبيته فى أوروبا الغربية وأمريكا حدا أثار القلق لدى كثيرين فى الغرب وصلوا إلى حد اتهامه بأنه يقوم بعملية تنويم مغناطيسى لجماهير « الديمقراطيات الباحثة عن حلول مريحة لمشاكل العالم المعقدة » !

٢ ـ إن « جورباتشوف » يعرف أكثر مما يعرفه أى زعيم سوفيتى غيره عن حقيقة الأحوال فى الولايات المتحدة وفى الغرب عموما . وهو يعرف أن الولايات المتحدة التى ارهقت الاتحاد السوفيتى فى سباق السلاح تحولت للسبب ذاته إلى أكبر دولة مدينة فى العالم . ثم أنها أصبحت فى « منافسة » من نوع ما مع أقرب الحلفاء إليها وأولهم « اليابان » !

وقد سمعت أنه أثناء زيارة قام بها « جورباتشوف » لبرلين الشرقية ـ كان عنيفا مع بعض الزعماء الألمان الذين كانوا يحاولون إنكار الحقائق المستجدة . وكان « جورباتشوف » عنيفا « لأن إنكار شمس النهار فى عز الظهر حتى إذا غطتها الغيوم ، هو تخل عن العقل وعن الحس السليم » . وفى نوبة العنف التى اعترت « جورباتشوف » راح يقول :

« إننى أخرجت « مصارينى » أمام ريجان . ولم يكن فى حاجة إلى أن يخرج « مصارينه » أمامى لأنى كنت أراها . نحن فى دنيا لم تعد فيها أسرار . ولم يعد فى مقدور أحد أن يعتمد على « خدع » من أى نوع . لأن كل الحقائق أصبحت عارية أمام كل الناس » .

٣ ـ هناك شىء آخر يعتمد عليه « جورباتشوف » ولعله فى مجاله نجح بأكثر مما

نجح فى أى مجال آخر . ذلك أن « جورباتشوف » استوحى ـ فيما بدا لى ـ قصة طوفان « نوح » .

لقد استطاع بسياساته أن يجعل ثلوج القطب الشمالى تذوب . وتحولت كتل الجليد الباقية من أيام الحرب الباردة إلى طوفان كأنه طوفان « نوح » ...

ولقد ترك السيول تهدر وموجاتها العالية تسابق بعضها إلى أوروبا الوسطى فى اتجاه أوروبا الغربية . وفى هذه الاندفاعات الهائلة للسيول الهادرة وموجاتها العالية فإن السدود انهارت ، وبينها « حائط برلين » (الذى يرى البعض سقوطه سنة **١٩٨٩** مماثلا لانهيار أسوار سجن « الباستيل » أمام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩) وقد طرح انهياره على الفور احتمال استعادة وحدة ألمانيا وهو الشبح الذى يؤرق الغرب لأن احتماله ـ مجرد الاحتمال ـ خطر يتهدد موازين الأمن الأوروبية . فإذا أضيف إلى ذلك أن كتلا ضخمة فى وسط أوروبا ، كبولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا ، قد أصبحت احجارا ضخمة سائبة تتدحرج على سفوح القمة الروسية مهددة بالانقضاض على الغرب ـ إذن فإن الشكل العام لأوروبا يصبح داعيا إلى فوضى شديدة .

٤ ـ إن هذه الفوضى الداهمة تتجاوز فى أبعادها حدود الاتحاد السوفيتى أو أوروبا الشرقية أو الغربية ، وإنما هى واصلة وراء ذلك إلى مايصعب حسابه :

ومثلا فإن احتمال استعادة الوحدة الألمانية ـ إذا تحقق ـ يعنى قيام « دولة عظمى » ثالثة إلى جانب الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، وهى دولة ذرية بالمعرفة ولاتحتاج إلى أكثر من لمسة زر واحدة من صانع القرار فيها لتتحول المعرفة النووية إلى تطبيق نووى .

ومثلا فإن التركيب الاقتصادى (وضمنه صناعة السلاح) وكذلك التركيب الاجتماعى والنفسى فى كل مجتمعات الغرب على جانبى الأطلنطى

قائم على أساس المنافسة والتعبئة وضد الشيوعية ـ فإذا خرج هذا العدو بما فى ذلك الاستعداد المادى والنفسى ضده من الحساب ـ فكيف تقوم معادلات التوازن الجديدة ؟

ومثلا فإن خطوط التقسيم السياسى والعقائدى فى مرحلة سابقة استوجبت قيام حلفين كبيرين لكل منهما جيش من أقوى وأحدث الجيوش فى التاريخ ، وهما حلف الاطلنطى من ناحية ، وحلف وارسو من ناحية أخرى . والأوضاع المستجدة فى العالم تأخذ من هذين الحلفين والجيشين مبرر وجودها لتتحول إلى أحلاف ورق وإلى جيوش عاطلين !

ومثلا فإن أوروبا الغربية كانت تنظم نفسها فى مواجهة أمريكا واليابان داخل سوق مشتركة تصل إلى هدفها الكبير سنة ١٩٩٢ . وإذا اتحدت ألمانيا فكيف يتم تنظيم هذه السوق ؟ ـ وإذا طلبت دول أوروبا الشرقية المتدحرجة إلى الغرب ـ وبعضها مثل بولندا سوف يطلبه ـ الانضمام إلى السوق الأوروبية ، فما هو الوضع مع العلم بأن اطرافا فى السوق الأوروبية ترى أن بولندا والمجر ، ولو بالانتساب ، أولى من تركيا بدخول السوق لأن « السوق الأوروبية » ليس لها أن تقبل فى عضويتها طرفا مسلما مهما كانت الظروف ؟

ومثلا فإنه نتيجة لهذه الفوضى لم يعد أحد يعرف أين هو تحديدا ؟ ومع من ؟ أو ضد من ؟ وأين القريب وأين البعيد ؟ وماهو المحتمل وماهو المستحيل ؟.

(وكنت اناقش هذه الصورة فى أحد حوارات موسكو الممتدة ، وقلت لمحدثى إن هذه الحالة تذكرنى على نحو أو آخر بتجربة قائد الأسطول الأمريكى السادس فى البحر الأبيض أيام معركة السويس ١٩٥٦ ـ كانت الولايات المتحدة قد وقفت فى تلك الظروف ـ ولأسبابها الخاصة ـ موقفا مختلفا عن موقف حلفائها التقليديين بريطانيا وفرنسا وإسرائيل . وبعث وزير البحرية الأمريكى فى واشنطن ببرقية إلى قائد اسطوله فى البحر الأبيض

يسأله عن حالة استعداده ـ ورد الأميرال قائد الأسطول ببرقية سارت مثلا فى التاريخ قال فيها : «الأسطول على أقصى درجات الاستعداد ، ولكن بحق السماء من هو العدو ؟») .

* * *

والحاصل أن « جورباتشوف » أعاد أوروبا مرة أخرى إلى مكانها الحساس والخطر على السلام العالمى . فمنذ الثورة الفرنسية ـ قبل قرنين ـ وأوروبا فى الواقع معمل ومختبر التاريخ الإنسانى . ومنذ ذلك الوقت ، ومن « نابليون » إلى « هتلر » والعالم يدفع ثمن مايحدث فى أوروبا . ولحقبتين أو ثلاث من الخمسينيات والستينيات وبعض السبعينيات استعار الشرق ـ الأقصى والأوسط ـ خشبة المسرح وراح يشغل العالم . وفى مطلع التسعينيات يعود المسرح إلى أوروبا مرة أخرى . والفضل لطوفان « جورباتشوف » !

ومن الذى يستطيع أن يضمن الشكل الذى يمكن أن تصبح عليه تضاريس القارة وتخومها عندما تتوقف السيول والأمواج وتنزل مياه الطوفان ويظهر ماتحتها ؟!

وأكاد أقطع بأن عشاء السبت الماضى فى الاليزيه (١٨ نوفمبر ١٩٨٩) ، والذى دعا إليه الرئيس « ميتران » بعض زعماء أوروبا الغربية على عجل ـ كان بالضبط محاولة مشتركة تتحسب للطوفان الهادر نحوها وتستعد لمخاطره إذا انقض .

....

....

وربما تذكرنا أن سفينة « نوح » الأصلية ـ فيما تقول الروايات ـ لايزال حطامها موجودا على سفوح جبال « آرارات » فى جنوب الاتحاد السوفيتى ، فهناك تركها الطوفان بعد أن غيض الماء !!

مستقبل العلاقات بين العرب والاتحاد السوفيتى

حوارات باللغة الصراحة عن الماضى
والحاضر والمستقبل فى هذه العلاقات

موسكو تلحق بمجرى التاريخ العالمى
العام .. والفرق بين « لينين » و « كريستوفر كولومبس » !

أولويات السياسة الخارجية السوفيتية
فى نسب بالأرقام

(٥)

أتمنى ألا أكون متشائما – ولا متفائلا – إذا أنا قلت إن قضايا الشرق الأوسط ، ومشكلات العالم الثالث جميعا ، لن يكون لها دور أو مكان فى اللقاء المنتظر بعد أيام على مياه البحر الأبيض الزرقاء وفوق أمواجه المنتعشة ببرودة الخريف فى هذا الوقت من السنة – بين « جورج بوش » و « ميخائيل جورباتشوف » . والواضح أن هذا الاجتماع بين الاثنين ليس له جدول أعمال محدد ، وإنما هو مخصص – حسب تعبير الرئيس الأمريكى – لهدف واحد « هو أن نعرف بعضنا أكثر على المستوى الإنسانى قبل أن نلتقى على أمور بعينها عندما يزورنا « جورباتشوف » فى الصيف القادم » – ويلحق بذلك إنه عندما يحين الأوان لبحث « أمور بعينها » – فإن الشرق الأوسط والعالم الثالث عموما ليسا على رأس قائمة « الأمور » التى تستولى على اهتمامها المشترك فى هذه الأوقات الهامة التى يجرى فيها العمل على إعادة صياغة علاقات القمة الدولية فى ظروف متغيرة . ومهما كان ذلك مؤلما فقد نتذكر مثلا شائعا روسيا يقول « إن الحقيقة المؤلمة أفضل ألف مرة من الأكذوبة المريحة » ! – وهو مثل شائع سمعته متكررا على ألسنة مختلفة طوال أسبوعين فى الاتحاد السوفيتى !

* * *

وفى حديث مع أحد أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى ، وهو فى نفس الوقت – وبموقعه الرسمى الكبير – أحد أبرز المشاركين فى صنع

وتوجيه السياسة السوفيتية فى الشرق الأوسط ـ سألته سؤالا صريحا ومباشرا

ـ « أين مكان الشرق الأوسط وقضاياه من أولوياتكم الآن ؟ »

وسكت لبعض الوقت ، ثم نزل بيده وكفه مفتوحة مفرودة إلى قرب الأرض وقال : « قليل ... » .

ثم أضاف :

ـ « ولكن هذا ليس معناه أننا فقدنا الاهتمام أو تخلينا عن دورنا ... » .

ولم آخذ تلك إجابة كافية ، وواصلت الضغط :

ـ « ماهو معنى قليل ... أحيانا ومن قوة عظمى فإن هذا القليل يكفى للتأثير فى الحوادث .. » ؟

ولم يقل شيئا . وواصلت الالحاح وأنا عادة لا أحبه ـ لكن الباب كان مواربا والفرصة قائمة :

ـ « لو أننى طلبت منك تجاوزا أو مجازا أن نحاول معا تحديد نسب لأولويات اهتماماتكم فى السياسة الخارجية ـ فكيف فى رأيك تكون النسب ؟ »

وتردد . ولم أسكت . وبعد فترة صمت قال :

ـ « إن المسائل لا تقاس على هذا النحو . ذلك صعب . صعب جدا . ومع ذلك فإننى لو حاولت مجاراة طلبك لقلت لك أن نسب أولويات سياستنا الخارجية (خلاف أوروبا الشرقية بطبيعة الحال) فى هذه الساعة هى تقريبا على النحو التالى :

٨٥٪ من اهتمامنا ـ هذه الساعة ـ لعلاقاتنا مع الولايات المتحدة .

١٠٪ لعلاقاتنا مع أوروبا واليابان .

٥٪ لبقية علاقاتنا مع الآخرين غير الذين ذكرتهم لك ! » .

ومع أن ذلك لم يكن بعيدا جدا عما توصلت إليه فى موسكو فإننى لم أتمالك

نفسى من الدهشة وهذه النسب تقرع سمعى ولو همسا ـ وقلت :

ـ « معنى ذلك أن الشرق الأوسط وكل ما فيه لا يحصل من اهتمامكم على أكثر من واحد فى المائة فقط . إذا كانت بقية العالم غير أمريكا وأوروبا الغربية واليابان لاتترك للعالم الثالث كله غير ٥٪ ، فلا أظننى مخطئا إذا قدرت أن نصيب الشرق الأوسط لا يتجاوز واحدا فى المائة » .

وعقب هو قائلا :

ـ « إننا نرجوكم تقدير ظروفنا الآن . ثم أن عليك أن تلاحظ إننى استعملت وصف « فى هذه الساعة » ، وما هو صحيح فى هذه الساعة قد لا يكون صحيحا بالضرورة فى ساعة لاحقة ! » .

وقلت له :

ـ « إننى بالطبع أقدر ـ كما إننى بالقطع أحاول أن أفهم ، وإلا لما جئت إلى هنا فى هذه الأيام ! » (وفيما بعد تساءلت بينى وبين نفسى عما إذا كانت « هذه النسب » فى « هذه الساعة » متأثرة باللمسات النهائية لاجتماع « بوش » و « جورباتشوف » ، وكان النبأ على وشك أن يعلن !) .

* * *

ومع ذلك وفى مناقشة أخرى مع صديق عربى خبير بالسياسة السوفيتية ومراقب لها منذ ربع قرن ، وكنت قد حدثته عن لقائى مع المسئول السوفيتى الكبير ـ وجدته يقول لى :

ـ « إن النسب التى حددها لك صديقك صحيحة ـ لكنى أجد نفسى ميالا إلى أن أضيف لها نقاطا أخرى لصالح اهتمام الاتحاد السوفيتى بقضايا الشرق الأوسط ، هى فى ظنى أكثر من واحد فى المائة . أكثر بالتأكيد .

لابد لك أن تتذكر أن هناك بابين لقضايا الشرق الأوسط .

هناك « الباب العربى » لهذه القضايا ، وبالفعل فإن نسبة اهتمام الاتحاد

السوفيتى به لاتزيد على واحد فى المائة ـ لكن هناك أيضا « الباب الأمريكى » وهذا له حسابه ، حتى إذا كان هذا الحساب موجودا فى خانة أخرى وهى خانة العلاقات الأمريكية السوفيتية التى قالوا لك أنها تمثل ٨٥٪ من اهتمامات الاتحاد السوفيتى الراهنة فى السياسة الخارجية » .

ومضى الصديق الخبير يقول :

ـ « الباب الأمريكى للشرق الأوسط مهم ، فالاتحاد السوفيتى يعرف أن الولايات المتحدة معنية إلى حد ما بقضايا الشرق الأوسط ، وهى حتى الآن لاتزال تلعب دورا مؤثرا فيها ، والاتحاد السوفيتى يعرف ذلك ولا يرى بأسا فى هذه الظروف من أن يكون « باب الشرق الأوسط وقضاياه » مدخلا ضمن مداخله إلى ساحة العلاقات الأمريكية السوفيتية . وذلك هو حافزه إلى سياسته الجديدة مع إسرائيل ، وهى سياسة لاشك أكثر ودا مما كانت . كما أن ذلك دافعه إلى تسهيل الهجرة إلى إسرائيل أمام من يرغب من اليهود السوفيت مع إنه يعرف أنهم يجبرون قسرا على الذهاب إلى هناك ، فميلهم الطبيعى للهجرة هو إلى أمريكا وليس إلى إسرائيل ، والاتحاد السوفيتى لايعنيه إلى أين يذهب المهاجرون فى النهاية ، المهم « تحسين » صورته فى الولايات المتحدة . كذلك فإن « الباب الأمريكى » هو السبب فى المرونة السوفيتية البادية إزاء ما يسمى بـ « جهود التسوية » فى الشرق الأوسط .

هكذا تختلف الحسبة . بمعنى إنه إذا كان الشرق الأوسط فى حد ذاته يحصل على واحد فى المائة من الاهتمام السوفيتى ـ فإن « الباب الأمريكى » يضيف إلى هذه النقطة زيادات قد تغير مجمل الحساب » ! .

ويواصل الصديق الخبير قوله :

ـ « لاحظ أن السياسة السوفيتية فى الشرق الأوسط ـ وغيره ـ مازالت فى حالة سيولة شديدة ، فالتغييرات الوافدة كل يوم تؤدى إلى ارتباك وخلط شديدين ، ثم إن سياسة أى قوة عظمى لا تتحول مرة واحدة ، وإنما هى دائما

خطوط متشابكة .حتى تصل الحركة إلى خط واحد ثابت ومؤكد .

وفى هذه الساعة فإن السياسة السوفيتية فى الشرق الأوسط تتبدى فى خمسة خطوط أستطيع أن ألمحها أمامى :

١ ـ خط مازال يرى أن السياسة القديمة للاتحاد السوفيتى فى المنطقة يجب أن تظل فاعلة كما كانت ولا تتغير ، وإنه حتى من « الباب الأمريكى » ـ فإن هذه السياسة تعطى الاتحاد السوفيتى ورقة فى يده يواجه بها الولايات المتحدة بدلا من أن تصبح المنطقة كلها ورقة فى يد أمريكا . ولنتفق مجازا على أن هذا الخط يمثله « بروتينيتس » وهو نائب رئيس قسم العلاقات الدولية فى اللجنة المركزية .

٢ ـ خط يرى نفس الرأى ، وإن كان أكثر مرونة فى قبول المتغيرات الوافدة على المنطقة وعلى العالم . ولنتفق مجازا على أن هذا الخط يمثله « بولياكوف » وكيل وزارة الخارجية السوفيتية (وكان من قبل سفيرها فى القاهرة) .

٣ ـ وخط بعد ذلك يرى أن الارتباط بسياسات قديمة أو التعهد بسياسات جديدة قيد لالزوم له على السياسة السوفيتية . ويرى هذا الخط أن « الأسلوب العملى » أفضل فى هذه الظروف وأفيد ، وبالتالى فإن الاتحاد السوفيتى عليه أن يستجيب لتطورات الأمور كما تجرى دون أن يربط نفسه بشىء ثابت . لأن الأوضاع كلها ليست ثابتة . ولنتفق مجازا على أن هذا الخط يمثله « تاراسوف » المساعد الخاص لوزير الخارجية السوفيتية ...

٤ ـ ثم يجىء خط آخر ينادى بأن كل ماكان فى الماضى خطأ وأن إسرائيل هى القوة الوحيدة المؤثرة فى سياسات الشرق الأوسط . فإذا أراد الاتحاد السوفيتى أن يلعب دورا فعليه أن يرفع كل تحفظاته السابقة فى التعامل مع إسرائيل . ولنقل مجازا أن هذا الخط يمثله « بوفين » ـ وهو نائب رئيس تحرير « ازفستيا » وعضو بارز فى النخبة السياسية الجديدة .

٥ ـ وأخيرا يجىء الخط الرسمى المعتمد ولو مؤقتا ، وهو خط « ادوارد شيفرنادزه » وزير الخارجية السوفيتية ، وفى رأيه أن كل الخطوط السابقة يجب المزج بينها فى خط واحد متوازن ـ على الأقل « حتى يتعود اصدقاؤنا القدامى فى الشرق الأوسط على موقف مختلف حيال قضاياهم .. موقف مختلف بمعنى أن يعرفوا أنهم لايستطيعون أن يعتمدوا علينا باستمرار كاحتياطى جاهز يستعملونه عند اللزوم ـ أو يتصوروا أننا تركناهم بالكامل للطرف الآخر ينفرد بهم ويفرض عليهم كيفما يشاء » !

* * *

طوال أسبوعين فى الاتحاد السوفيتى كنت أحاول أن أتصور ماحدث وأستوعبه ـ وربما لا أتجاوز إذا قلت إننى طوال هذين الأسبوعين رأيت كثيرين من « الملتزمين عقائديا » غير قادرين لا على التصور ولا على الاستيعاب ..

طوال الأيام التى قضيتها فى موسكو التقيت بكثيرين من العالم الثالث ، وبعضهم من رجالات التنظيمات الثورية والعقائدية التى ملأت الساحة فى الخمسينيات والستينيات وبعض السبعينيات من هذا القرن ، وكان بينهم من لعبوا أدوارا مؤثرة فى ظروف سبقت .

لكن الظروف الآن اختلفت ... والآن كان حديثهم تعبيرا عن الشعور بـ « صدمة » .

فكلهم حتى هذه اللحظة عاجز عن إدراك أن الاتحاد السوفيتى لم يعد « هناك » ـ حيث كان .

وبعد هذا الشعور بالـ « صدمة » ـ فإن ردود فعلهم جاءت متضاربة :

• **كان بينهم** من وقف بأدب « ليقول للرفاق السوفيت » أنهم « يظلمون أنفسهم وينكرون انجازاتهم بكل هذا الاندفاع إلى سياسة « الجلاسنوست » (الحديث بصوت عال ومصارحة النفس والآخرين) ـ وأن كل تلك

الأقوال والتقارير عن « الفشل » ليس لها مقتضى من الحقيقة والواقع .»

ووجدتنى أقول له بعد أن انتهى من كلامه :

ـ « أنه نسى مثلا عربيا شائعا يقول إن « أهل مكة أدرى بشعابها » .. ثم أنه نسى حكمة من عصر التنوير مؤداها أن « كل التجارب الإنسانية قابلة لثلاث حالات : الصواب ـ والخطأ ـ والتجاوز » (أى أن بعض التجارب قد تكون عظيمة فى زمانها ، لكن هذا الزمان قادر بمستجداته على تجاوز ما كان !) .

• **وكان بينهم** من وقف يقول بأسى : « إنكم بهذه السياسات تتركوننا وحدنا على الساحة فريسة للاستعمار والامبريالية » !

والمفارقة أننى ـ مع كثرة ما سمعت فى الاتحاد السوفيتى ـ لم أسمع من السوفيت هذه المرة أيا من تعبيراتهم الشهيرة عن : « الاستعمار والأمبريالية » ـ وكان رد بعضهم حينما ابديت ملاحظة عن هذا الغياب « أن التناقضات تتغير شأنها شأن كل حال . وهناك فى العالم حالة جديدة . وهذه الحالة تحمل معها تناقضاتها . لكننا لانستطيع أن نسحب مسميات حالة على ظواهر حالة أخرى ـ لاتزال تكشف عن طبائعها . »

• **وكان بينهم** من وقف بما هو أكثر حدة وظنه أن الاتحاد السوفيتى يتخلى عن الماركسية ، وأن أجياله الحالية فى حاجة إلى أن تتعلم اصولها وقوانينها من أول حرف « الألف » !

وقال لى أحد « العقائديين العرب » : «إننى خارج من هنا إلى غير عودة ، وإذا كنا نجىء إلى هنا لنرى مجتمعا يمسخ نفسه على الطريقة الأمريكية ـ من « بنطلونات الجينز » إلى « موسيقى الروك » ـ فالأفضل أن نذهب إلى نيويورك حيث « الأصل » وليس « المسخ » ! ».

وكانت تلك كلها تجارب مثيرة من الناحية الإنسانية ـ ولكنها من الناحية السياسية كانت مدعاة لأسى شديد ، وفى ظنى أنه ليس أدعى إلى الأسى من

« يوم » لايعرف أن هناك « غدا » وراءه ، وأن هناك وراء « الغد » « بعد غد » ـ وهكذا إلى آخر الزمان .

ولعل بعض « العقائديين العرب » معذورون فى جزء من صدمتهم ـ فعلى امتداد حقب متوالية كان الاتحاد السوفيتى يبدو ظهيرا ونصيرا ثابتا لايغير موقعه أو موقفه . ولم ينتبه هؤلاء عندما بدأ ذلك الموقف السوفيتى يتأرجح ـ وكان طبيعيا أن يتأرجح ـ مبكرا عند بداية الوفاق . ولعلهم لم يكونوا قادرين ـ أو راغبين ـ فى التنبه للحقائق المستجدة ـ فلما اضطر الاتحاد السوفيتى اضطرارا إلى تنبيههم لها ـ كانت الصدمة مضاعفة .

وكان بعض مشاهد المصارحة أشبه ما يكون بما يصوره كتاب المسرح الضاحك أو الباكى على حد سواء !

- روى لى أحد زعماء الحزب الشيوعى اللبنانى أنه ناقش أزمة لبنان مع بعض مسئولى اللجنة المركزية فى موسكو ، وإذا هم يقولون له :

ـ « عليكم أن تحاولوا الوصول إلى تسوية بشكل ما » !

وقال لهم أن الطرف الآخر متعنت ويريد أن يفرض شروطه ، فكيف نستطيع أن نصل إلى تسوية معه ؟

وكان الرد : « لانعرف .. ولكن عليكم أن تصلوا إلى تسوية مهما كان الثمن . أى ثمن ! » .

- وسمعت قائدا فلسطينيا بارزا بين « المتصلبين » يروى تجربة مماثلة مع بعض مسئولى اللجنة المركزية ـ فقد قالوا له : « لا بديل غير التسوية السلمية ومائدة المفاوضات » !

وقلت له متعاطفا : « ولكننا سمعنا هذا الكلام منهم قبل الآن ، والجديد فى هذه اللحظة أنهم يعلنونه صراحة . » .

ورد قائلا : « أنتم سمعتموه من قبل موجها إلى حكومات لديها خيارات للحركة وبدائل .. وأما نحن .... » .

قالها وسكت .

وقلت له بصدق : « لكن الشعب الفلسطينى لديه الانتفاضة ، وقد احدثت ـ ومازالت تحدث ـ آثارا تقدم خيارات وبدائل للحركة لم تتح من قبل لأى من الحكومات العربية المهتمة بقضية فلسطين . »

- وكان المشهد المثير لمشاعر متناقضة هو مشهد « مناضل عقائدى » آخر جاء مفزوعا يقول لى :

ـ « تصور هؤلاء الناس .. قالوا لنا أمس أنهم يبحثون جديا فى التعاون مع الأمريكان فى مسألة مكافحة الأرهاب » ! .

- ثم لحقه مشهد مثير ثان حدث لواحد من صفوة المثقفين العرب وقد جلس مع زملاء له من السوفيت يبحثون فى أمر مؤتمر موسع جديد يبحث فى مستقبل العلاقات العربية السوفيتية ، وإذا بزملائه السوفيت يقولون له باستحياء :

ـ « عندما تقومون بتحديد الوفود العربية القادمة إلى هذا المؤتمر فإننا نرجوكم ـ من فضلكم ـ تقليل عدد الشيوعيين فيها لأن البعض منهم تحجروا » !

- وبالقرب من هؤلاء « العقائديين والمناضلين » العرب كان هناك مشهد ختامى أكثر اثارة ، فقد كانوا وهم مدعوون إلى مؤتمر عن العالم الثالث و « البيروسترويكا » يقيمون ضيوفا على اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى فى الفندق الفخم ـ بناء فقط ! ـ المخصص لأعضائها ، وهو فندق « أوكتوبرسكى » ـ نسبة إلى شهر أكتوبر ، شهر الثورة ـ لكن ضيف الشرف فى الفندق والذى احتل الجناح الرئاسى فيه كان نجم السينما

الأمريكية المشهور « شون كونارى » وكان فى موسكو مع فريق كبير من المخرجين والمنتجين والفنيين يصورون فيلما مأخوذا عن قصة « لوكاريه » الجديدة « خارج روسيا » "Out of Russia" !

كانت الصور كلها صدمات متتابعة !

[ولقد سمحت لنفسى أن ألفت نظر كثيرين إلى فارق بين سنتين هو نفسه الفارق بين سياستين للاتحاد السوفيتى :

- فى سنة ١٩٦٩ أعلن الاتحاد السوفيتى التزامه بما اسماه مبدأ « بريجنيف » وبمقتضاه فإن موسكو تعطى نفسها الحق فى التدخل ـ حتى عسكريا ـ ضد أى وضع تعتبره عدوانا من الخارج أو من الداخل على نظم حكم شيوعية . وكان ذلك فى الواقع تقنينا للتدخل العسكرى السوفيتى فى تشيكوسلوفاكيا ١٩٦٨ ـ ضد « الأوضاع » التحررية التى نشأت عن ربيع « براغ » واجراءات التحرر التى قادها الزعيم التشيكوسلوفاكى « دوبتشيك » .

- وفى سنة ١٩٨٩ ـ خطط الاتحاد السوفيتى وشارك عمليا فى تنفيذ انقلابات من الداخل على نظم حكم شيوعية ليستبدلها بـ « أوضاع » ليست بعيدة عما ذهب إليه « دوبتشيك » .

وكان « جورباتشوف » بنفسه هو الذى ضغط على الجنرال « ياروجيلوسكى » لكى يترك « حركة تضامن » تؤلف فى بولندا وزارة غير شيوعية (بل معارضة للشيوعية) .

وكان « جورباتشوف » شريكا فاعلا فى الانقلاب من الداخل على حكومة « هونيكر » فى ألمانيا الشرقية ، وعلى « جيفكوف » فى بلغاريا . ومازال « جورباتشوف » يهندس لانقلابات أخرى من الداخل ضد نظم حكم شيوعية فقدت ـ فى رأيه ـ إحساسها بدورة الزمان !

عشرون سنة تغيرت فيها الضرورات من النقيض إلى النقيض !

وكان ذلك كله صعبا ، ولكن بوصلة الواقع من حقها أن تضبط كل الاتجاهات !] .

* * *

ولعلى لا أتجاوز إذا قلت إننى كنت أتوقع هذه النتيجة للعلاقات بين العالم الثالث والاتحاد السوفيتى منذ سنوات طويلة ، وقد ركزت عليها فى الفصل الأخير من كتابى « أبو الهول والقوميسير » (وهو كتاب عن العلاقات العربية السوفيتية نشرته صحيفة الـ « صنداى تيمس » مسلسلا سنة ١٩٧٦ ، وطبعته دار « كولينز » للنشر بعد ذلك بشهور وترجم ونشر بأكثر من عشرين لغة) .

والحقيقة أن العلاقات العربية السوفيتية كانت تحمل منذ أيامها الأولى بذور المتاعب التى واجهتها فيما بعد :

١ ـ كان العرب « جاهزين » بالتحفظات على روسيا من قبل أن تبدأ علاقاتهم المباشرة مع السوفيت على نطاق واسع سنة ١٩٥٥ بصفقة السلاح الأولى مع مصر .

ذلك أنه طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بدت « روسيا القيصرية » وكأنها « العدو الرئيسى » لدولة الخلافة العثمانية تتربص بها دائما وتنقض عليها حين تسنح فرصة وتقضم قطعة من أملاكها ، ثم تنتظر ريثما تبلعها وتهضمها ، ثم تعاود التحرش فى طلب قضمة أخرى .

٢ ـ وحين جاءت الثورة البلشفية فإن التحفز ضدها بحكم سيطرة الغرب ومعه طبقة كبار ملاك الأرض ـ نجح فى اقامة الحواجز والمتاريس ضد الفكر الماركسى وحاول حصاره ومطاردته وتجريمه . وبالطبع كانت قضية الموقف من الوطنية والدين هى السبب والذريعة .

٣ ـ ومن المصادفات السيئة للفكر الماركسى وتنظيماته أنها بدأت تنشط فى الأربعينيات ـ مع ظهور دور الاتحاد السوفيتى فى الحرب العالمية الثانية ـ

لكن ذلك بالضبط كان وقت « ظهور » و « تقدم » الحركة الصهيونية إلى اغتصاب فلسطين . وكان العنصر اليهودى غالبا فى التنظيمات الماركسية التى نشطت فى ذلك الوقت . ووقع ـ وكان محتما أن يقع ـ خلط بين الماركسية والصهيونية ـ مع العلم أن صفوة من الماركسيين العرب تنبهت بوعى إلى مايقع ، ومن ثم تقدمت بشجاعة إلى قطع الظنون وخاضت فى سبيل ذلك معركة على جبهتين : مع رفاقها القدامى ، ومع أجهزة الأمن فى بلادها .

٤ ـ وعندما بدأت العلاقات بين العرب والسوفيت رسميا ، فقد بان أنها علاقات اضطرار أكثر منها علاقات اختيار . فالعرب الذين مدوا أيديهم للتعاون مع الاتحاد السوفيتى لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن بقيت أيديهم الممتدة للغرب معلقة فى الهواء شهورا وسنين !

٥ ـ إن العرب ـ مع ذلك ـ ذهبوا إلى موسكو وعيونهم على واشنطن ، وقد قال لى « أندريه جروميكو » ـ وزير خارجية الاتحاد السوفيتى لأربعين سنة ورئيس الدولة السوفيتية مباشرة قبل « جورباتشوف » ـ مرة بضيق ظاهر :

ـ « لا أعرف لماذا يتذكر الزعماء العرب مواعيد الصلاة فقط عندما يجيئون إلى الكرملين . أثناء وجودهم فى الكرملين وحين يجىء موعد الصلاة يقطعون الاجتماعات ويقفون لأدائها . لم اسمع أن واحدا منهم سأل عن اتجاه « القبلة » فى البيت الأبيض ! »

٦ ـ إن الحكومات العربية وبيروقراطياتها التى جاءت لتتعامل ـ بالمفاوضات والمعاهدات والاتفاقيات العسكرية والاقتصادية والثقافية وغيرها ـ مع نظيراتها فى الاتحاد السوفيتى ، جاءت فى البداية متهيبة بظن أنها مقبلة على مستوى آخر من الناس . وكانت مفاجأتهم كبيرة حينما اكتشفوا أن البيروقراطية الروسية ليست أحسن حالا منهم . ولقد أدهشهم تركيز السلطة عند القمة ، وأدهشتهم ضآلة المرتبات . وأدهشتهم تعقيدات الاجراءات

(كانت مدرسة العرب فى الإدارة عثمانية ، وكانت مدرسة الروس بيزنطية ، ولم يكن هناك فضل لواحدة منهما على الأخرى) ـ ووقع فى وهم البيروقراطيات العربية أنها أكفأ من البيروقراطيات السوفيتية . وأرسيت قواعد التعاون العربى ـ السوفيتى من منطق يستهين فيه كل طرف بصاحبه . ومع التسليم بوجود استثناءات لكل قاعدة فإن أطر التعامل كلها لم تكن متماسكة .

٧ ـ إن الخلفية الثقافية للعرب كانت متأثرة بأوروبا الغربية ، بعيدة عن أوروبا الشرقية . وبالتالى فإن الحوار بكل ما يستطيع أن يحققه من فهم مشترك كان قابلا للاتصال مع الغرب وأما مع الشرق فقد كان متعثرا .

٨ ـ إن ضرورات الفهم المشترك ، مع الحاجة لعلاقات مشتركة ، جعلت التفاهم يجرى ليس بطريقة تبادل الأفكار ، وإنما بطريقة تبادل الشعارات .

والشعارات فى أدبيات البشر جميعا نوعان :

نوع يختزل حقيقة تاريخية ويستدعى كل أسبابها ـ من نوع القول بأن « العرب أمة واحدة » .

ونوع آخر أقرب إلى الهتافات منه إلى الشعارات ، وهو إحساس لحظة واحدة ليس لها العمق التاريخى الضارب فى بطن الأرض ـ ومن نوع أن نقول « عاشت الصداقة العربية السوفيتية » .

وفى غيبة أصول تاريخية . حضارية ثقافية . فإن الشعارات التى جرى تبادلها فى اطار العلاقات العربية السوفيتية كانت من النوع الثانى .. الأقرب إلى الهتافات .

وهذا النوع لايعيش طويلا .. بالضبط لغياب جذور تاريخية له مهما كانت دواعى المصلحة الآنية فيه !

٩ ـ ثم أن العرب ـ وهم يعرفون أن علاقاتهم الطارئة مع السوفيت هى معبر إلى طريق آخر واصل إلى الغرب ـ لم يبذلوا جهدا كافيا لفهم صديقهم الاضطرارى بما فى ذلك تكوينه الجغرافى والتاريخى والثقافى . وكذلك مصالحه الدائمة داخل حدود بلاده أو خارجها . وبالتالى فأنهم أخذوه « مضمونا » بحكم الاحتياجات . وكانت الاحتياجات فى تلك الفترة هى منافسة الحرب الباردة مع الغرب ، ومبيعات السلاح السوفيتى للعرب . وعندما بدأت ثلوج الحرب الباردة تذوب تحولت ساحة العلاقات إلى مستنقعات من الوحل غرقت فيها المدافع والدبابات ومدارج المطارات ـ ومعها الحاجة إلى فهم أعمق !

١٠ ـ ومن باب انصاف النفس ، فمن الحق أن يقال إن الاتحاد السوفيتى تصرف فى بعض الأحيان بيد غليظة . لكنها يد الفلاح « السلافى » بالطبيعة ، أو يد عامل الصلب الذى لايعرف غير التعامل مع كتل المعادن سائلة بالصهر أو متجمدة باردة !

ومع ذلك فقد كانت السياسة السوفيتية تملك قدرا كبيرا من سلامة التفكير وسلامة التقدير جعلها تدرك بعد سقوط معاهدتها مع مصر سنة ١٩٧٥ ـ أنه لم يعد أمامها مفر سوى الخروج من قلب الشرق الأوسط والانسحاب إلى أطرافه . ومن سوء الحظ أن الاتحاد السوفيتى وهو يحاول ترسيخ مواقعه فى الأطراف القريبة من حدوده وجد نفسه متورطا فى أفغانستان . فقد خشى أن يدهمه تيار الأصولية الاسلامية داخل جمهورياته الجنوبية . ولم ينجح هذا التدخل . وأدت ظروفه فى الجنوب إلى احتكاك بدأ شره يصل إلى « كازاخستان » و « اذربيجان » وغيرهما . ومرة أخرى كان عليه أن ينسحب !

* * *

والنتيجة أن الاتحاد السوفيتى ، بعد ثلاثين سنة من التعامل مع العالم الثالث ، وجد الحصيلة خسارة محققة :

وتشير الأرقام ـ حتى الأرقام الأمريكية ـ إلى أن الاتحاد السوفيتى فى فترة الثلاثين سنة هذه تكلف صافيا قرابة أربعين بليون دولار فى مساعدات للعالم الثالث . وفوق ذلك فإنه أرسل إلى هذا العالم الثالث أكثر من سبعين ألف خبير عسكرى ومدنى لايستطيع أحد أن ينكر واقع اسهامهم فى قضايا العالم الثالث ، وبعضهم إلى حد الموت !

ولقد كان ذلك أكثر مما يستطيع الاتحاد السوفيتى أن يتحمله ، وهو مازال يتحمل حتى الآن :

بليون دولار كل سنة حتى الآن لكوبا .

وبليون دولار كل سنة حتى الآن لفيتنام الشمالية .

وبليون دولار كل سنة حتى الآن لأفغانستان .

وبليون دولار كل سنة حتى الآن موزعة مابين أنجولا وأثيوبيا فى أفريقيا .

وهذا بالطبع غير ما يتكلفه الاتحاد السوفيتى فى الداخل من تكاليف ضيافات واستقبال وفود ، وتلبية رغبات بعضها معقول وأكثرها مبالغ فيه .

وكان الاتحاد السوفيتى خصوصا طوال الخمسينيات والستينيات والسبعينيات والثمانينيات أيضا ـ يفتح أبوابه كلها « لوفود صديقة أو شقيقة » ـ وكان ذلك فى تقديره جزءا من هيبة الدولة الأعظم ، ثم أنها التجربة الأولى لدولة « التنظيم الاجتماعى » . وجرى اعداد قصور فى الضواحى ، وبناء فنادق فى العواصم ، واعداد مستشفيات ومصحات فى شواطئ البحر الأسود تفتح احضانها للاستقبال « الرفاق » .

وربما أن بعض ذلك جرت تهيئته فى الأصل لقادة الدولة والحزب يتأكدون فيه بحياة كل يوم أنهم واحدة من القوتين الأعظم ـ وعندما فتحت أبوابه « للرفاق » من الخارج فقد كان الهدف منه أن يعرف هؤلاء ـ بدورهم ـ أن الاتحاد السوفيتى لايقل فى مجالات الأبهة عما هو معروف فى أوروبا الغربية وأمريكا .

وكان ذلك كله مكلفا . ولكنه بدون مردود حقيقى .

وفى إحدى ليالى موسكو المزدحمة بالحوارات السياسية الممتدة حتى مطلع الفجر ، قال لى مسئول سوفيتى بارز :

– « هل تعرف ماذا استوقفنى فى كتابك « أبو الهول والقوميسير » ؟ استوقفنى تعبيرك أن العالم الثالث كله يختار أن يقلع بالطائرة مع الاتحاد السوفيتى ، وعندما يحين وقت الهبوط فأنه يختار أن ينزل مع الأمريكان .

ولقد تمثلت الصورة فى ذهنى فى عدة مناسبات ، وسألت نفسى وآخرين من أصدقائى :

– كيف قام أصحابنا بهذه الحركة الخطيرة فى الجو .. الانتقال من الطائرة السوفيتية التى اقلعوا بها إلى الطائرة الأمريكية التى هبطوا فيها ؟!» .

* * *

وقبل أن أغادر موسكو جاء لوداعى مسئول سوفيتى كبير ـ وقلت له :

« إننى عائد الآن إلى العالم الخارجى ، وأريد أن أسألك : ماذا أقول لهم إذا سئلت عما رأيت فى الاتحاد السوفيتى ؟!» .

وقال على الفور :

« قل لهم أن الاتحاد السوفيتى عائد إلى المجرى العام للتاريخ ؟» .

وحاولت استثارته ، فقلت :

« هل أفهم من ذلك أنكم كنتم حتى الآن خارج المجرى العام للتاريخ . وكنا نسمع منكم أنكم حركة التاريخ ذاتها صافية ومقطرة ؟».

وسكت قليلا ، ثم قال :

« ما أقصده هو أننا فى بعض الظروف عزلنا أنفسنا عن السياسة والاقتصاد فى العالم . حاولنا اقامة نظام عالمى مستقل . والآن تفرض علينا الحقائق أن نشارك مع بقية الدنيا .»

ومضيت أسأل :

« بما فى ذلك الانضمام إلى صندوق النقد الدولى والبنك الدولى وغيرهما من المؤسسات ؟ وإذا ذهبتم إلى هذا الموقع ودخلتم فى مشاركة من نوع جديد فى تقسيم العمل الدولى ، فما هى ضمانتنا ضد ألا نجدكم فجأة ضمن نظام السيطرة المالية العالمية الجديدة المتمركز فى الغرب ؟» .

ثم سألته :

« هل أنكم بذلك تصححون الخطأ الذى وقع فيه « لينين » على حد تعبير مشهور ومأثور للمفكر الروسى « كوبيليف » قال فيه :

إن « لينين » نقيض لـ « كريستوفر كولومبس » . فقد بدأ « كولومبس » رحلته الملاحية متصورا أنه ذاهب إلى الشرق ، وإذا به ينتهى إلى الغرب الجديد فى أمريكا . وأما « لينين » فقد بدأ رحلته السياسية متصورا أنه ذاهب إلى حضارة الغرب الجديدة ، فإذا رحلته تنتهى فى الشرق ؟!»

ورد بقوله :

« إنكم الآن تعرفوننا على الأقل . هذا ما استفدناه من تجربة مشتركة طويلة ومعقدة . وعلى أى حال فلابد أن تعرفوا أن وجودنا داخل النظم المالية العالمية قادر على أن يخفف ـ ولو قليلا ـ من شراستها !» .

ومع استعدادى لتقبل فكرة أن جزءا من ذلك صحيح ـ فإن دواعى التخوف مازالت تفرض نفسها .

فالحصة المعروضة على الاتحاد السوفيتى فى صندوق النقد الدولى حتى الآن تكاد تكون ربع الحصة التى تملكها الولايات المتحدة .

ثم أن الأوضاع الطارئة فى الكتلة الشرقية كلها سوف تؤدى إلى تحول محقق فى كل المساعدات الدولية المتاحة للدول النامية . وأغلب الظن ـ وهذا باد الآن وظاهر ـ أن حصة الأسد فى المساعدات الدولية تعيد الآن توجيه نفسها إلى ناحية

بولندا والمجر وألمانيا الشرقية وبلغاريا .

ونفس الوضع ينطبق على الاستثمارات الدولية مع تسليمى بأن ماهو متاح منها للعالم العربى ضئيل لايكاد يذكر ، بل إنها حتى هذه اللحظة « طعم صيد » أكثر مما هى مكسب حقيقى . فنتيجة لأزمة الديون تحول العالم الثالث كله من استيراد الأموال إلى تصديرها للمتقدمين والأغنياء بفائض لصالح الغرب وصل فى العام الماضى إلى أكثر من ٢٥ بليون دولار !

وبرغم هذا الوضع المعكوس فإن الاستثمارات الدولية لاتزال مطلوبة خصوصا إذا أمكن تعديل شروطها وإذا كانت مصحوبة بتكنولوجيا جديدة تدخل فى صحبتها !

ويضاف إلى ذلك أن تداعى الأحوال فى أوروبا الشرقية فى اتجاه الغرب قد يؤثر على فرص العمل المتاحة لملايين من العالم الثالث تسربوا إلى أوروبا الغربية حيث وجدوا هناك فرصا لمستقبل أحسن .

(ولم أقل لأحد فى الاتحاد السوفيتى « أنهم » فى الغرب كانوا يساعدون ويستثمرون ـ ! ـ وبين دوافعهم ألا نقترب منهم بأكثر مما هو لازم ـ والآن فإن نصف الكتلة الشرقية ـ وأنتم وراءها ـ الذين تقتربون منهم بأكثر مما هو لازم ! !) .

* * *

ومهما كان أو يكون فالمهم فى تقديرى الآن هو التركيز على المستقبل ولعلنا فى النظر إليه لاننسى حقائق كانت ولاتزال قائمة :

١ ـ إن الاتحاد السوفيتى مازال واحدا من القوتين الأعظم فى هذا العصر وفى هذا العالم ـ وسوف يظل كذلك إلى وقت طويل .

٢ ـ إن الاتحاد السوفيتى مازال قوة اقتصادية ضخمة ، ولقد ضربها الزلزال بعنف وأفقدها توازنها هذه اللحظة ـ لكن كل لحظة فى التاريخ عابرة خصوصا

إذا كان أصحابها يملكون وعى إدارة شئونهم فيها ويملكون موارد ومصادر التصحيح الضرورية واللازمة .

٣ ـ إن الاتحاد السوفيتى مازال صديقا للعالم الثالث ـ ويجب أن يظل له هذا الموقع ضرورة وعدلا .

٤ ـ إن الاتحاد السوفيتى ـ مهما قلنا أو قال غيرنا ـ مهتم بالشرق الأوسط لأنه جاره المباشر بالجغرافيا ـ وهذا وضع لايمكن اعتراضه أو قطعه .

....

....

على أن العلاقات بين الطرفين ـ العالم الثالث والشرق الأوسط ـ قد تحتاج أكثر ما تحتاج الآن إلى اعادة تقييم وإلى اعادة فهم وإلى اعادة رسم نوع مختلف من العلاقات فى عالم بالغ التعقيد .

ولقد علمت فى موسكو أنهم ينتظرون زيارة مقبلة من الرئيس « حسنى مبارك » فى شهر مارس أو إبريل القادمين . وأظنها فرصة مواتية له يتمكن فيها من إعادة صياغة علاقات عربية سوفيتية تصلح لعصر جديد وتواجه مستقبلا لابد من التدخل فى تشكيله قدر ما نستطيع سرعة واتجاها !

والمحصلة النهائية أن علاقاتنا بالاتحاد السوفيتى ـ بعد الزلزال وبعد الطوفان ـ لايجب أن تترك للمصادفات .

أو للقاء فى البحر الأبيض المتوسط ـ بين « بوش » و « جورباتشوف » ـ ليس لديه وقت لها ولاهى مطروحة على جدول أعماله الحقيقى !

رقم الايداع : ١٩٨٩/٩٢٤٥
الترقيم الدولى : ٩ ـ ٣٩١ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
بيروت: ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣